النَّاجحون

ليوناردُو ديْ فنشي

الرَّسّام الخالِد



دار العلم للملايين

النَّاجحون

ليوناردو دي فنشي

دار العلم للملايين

النَّاجحون

- مجموعة كتب تعرض حياة نخبة من أبطال العالم في الشرق والغرب، في الحرب والسلم، رجالاً ونساءً، قديماً وحديثاً.
- تقدّمها دار العلم للملايين إلى الفتيان والفتيات الذين يريدون أن ينجحوا في الحياة.
- يقول المثل: إن النجاح يجرّ النجاح، فتعرّف إذن إلى الناجحين يسهل عليك تحقيق النجاح.
- أشرف على وضع هذه الكتب عدد من رجال التربية وعلم النفس في العالم العربي لتكون مدرسة حيّة لفتيان اليوم ورجال الغد.

5 281006 060204

الناجحون

ليوناردو دي فنشي

الرَّسَّام الخالِد

طبعة جديدة مَزيدة ومُنقّحة

ومُرفقة بمجموعة من الأسئلة المنهجية والمفيدة

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب: ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٧٠١٦٥٥
برقياً: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها - دون إذن خطي من الناشر.

الطبعة الأولى ١٩٩٤
الطبعة الثانية
كانون الثاني/يناير ١٩٩٨

في مدرسة الطبيعة

ليس في العالم إنسانٌ لم يسمع باسم ليوناردو دي - ڤنشي. أليس هو صاحب اللوحة الشهيرة التي تُعرف باسم «الجوكوندا» أو «الموناليزا» نسبةً إلى السيدة التي تمثلها هذه اللوحة! والواقع أن هذه اللوحة من أثمن الكنوز الفنيّة التي تزيِّن متحف «اللوفر» في باريس. وقد يتساءل المرء عن ثمن هذا الكنز.. إنه يبلغ بضعة ملايين من الدنانير. ومثلُ هذا المبلغ ثروةٌ طائلة من شأنها أن تغري لصوص المتاحف وتدفعهم إلى سرقة هذه اللوحة. ولقد حاولوا ذلك مراراً، لكن محاولاتهم الكثيرة قد فشلت بسببِ من الحراسة المشدَّدة التي تفرضها الدولة الفرنسية على هذا الكنز الفنّي الثمين.

وخير شاهد على ذلك أن حكومة الولايات المتحدة الأميركية طلبت من الحكومة الفرنسية أن تعيرها «الجوكوندا» لعرضها في نيويورك، فطلبت فرنسا مبلغًا من المال يفوق أضعاف ثمنها، على سبيل التأمين. ولقد تمَّ نقلُ اللوحة في حراسة عدد كبير من الخبراء الفنيّين ورجال الشرطة، سواء في الرحلة إلى نيويورك أو العودة منها إلى متحف «اللوفر» بعد ذلك.

والآن.. إذا كانت هذه التحفة الفنيّة تحظى بمثل هذا الاهتمام البالغ في عصرنا الحاضر فلا شكّ أن الفنّان العظيم الذي صوّرها جدير باهتمام

كبير. والواقع أن شخصيّة «ليوناردو دي ڤنشي» تستحقّ الإعجاب الشّديد والدّراسة الدقيقة والتأمّل العميق. فقد كان هذا الرجل ذا عبقرية نادرة ومتنوّعة إلى حدٍّ عجيب. لم يكن نشاطه منحصرًا في حدود عالَم الفنّ وحده، بل تجاوزه إلى ميادين عدّة من ميادين العلم والمعرفة.

ويذكر التاريخ عن هذا الفنّان أنّه كان مهندساً معماريًّا فذًّا، ومخترعاً لأسلحة حربيّة فتّاكة، ومصمّمًا لكثير من الأدوات التي تُستخدم في الصّناعاتِ الحرَفيّة. كذلك كان خبيراً في علم التشريح، والنبات، والطّبيعيات، كما أتقن علوم زمانه في الرّياضيات. أما قضايا الزّراعة وبناء السّدود على الأنهر، وأقنية الريّ، وتجفيف المستنقعات ـ فقد مارسها عمليًّا، وكان نجاحه فيها نجاحًا عظيماً. كل هذا علاوة عن أن الرجل كان فيلسوفاً حكيمًا وموسيقيًّا ونحّاتاً وصاحب «الجوكوندا» في التّصوير.

يا لَهُ من عبقريّ!!

ولعلَّ أكثر ما يثير الدّهشة في أمر «ليوناردو» أنّه عاش في عصر غارق في الجهل. وهكذا لم يحصّل علومه في جامعة ولا كليّة فنون، إذ لم يكن هناك شيء من ذلك، وإنما حصّله بنفسه، بجهوده الشخصيّة وذكائه المتوقّد. وكان «ليوناردو» عظيمَ الشّغَف باكتشاف ما يحيط به من أسرار الكائنات والأشياء، كما كان يَقْرن المعرفة بالعمل، فهو يستخدم ما يحصّله من المعرفة في مجال اختراع آلات ميكانيكية نافعة.

فمن هو «ليوناردو دي ڤنشي» هذا؟

في إحدى ضواحي بلدة «ڤنشي» القريبة من مدينة «فلورنسا» بإيطاليا، وُلد ذلك الطّفل الذي سمّاه أبواه «ليوناردو». وكانت فلورنسا

شهيرةً بقصورها الفخمة وأمرائها الأغنياء المعروفين باسم «آل المدتشي».

كان ذلك في عام ١٤٥٢، وهو العام الأخير من عهد القرون الوسطى أو عصر الظلام. وقد انتهى هذا العصر بفتح «القسطنطينية» على يد السلطان العثماني محمد الفاتح.

وكان أبو ليوناردو، واسمه بيرو دي ڤنشي، يشغَل وظيفة (كاتب عدل)، قد ورثها عن أبيه وأجداده. لذا كان كثير الأشغال. وكان مولعًا بعقد الصّفقات التّجارية خارج حدود وظيفته، فاستطاع أن يجمع لنفسه بعض المال. وقد صرفه ذلك عن الاهتمام بولده البكر ليوناردو، فعاش الطفل محروماً من عطف أبيه. ولم يمضِ إلّا وقت قصير حتى حُرم من عطف أمه أيضاً. إذ هجرت زوجَها بعد أشهر من ولادة طفلها، وتزوّجت من رجلٍ آخر.

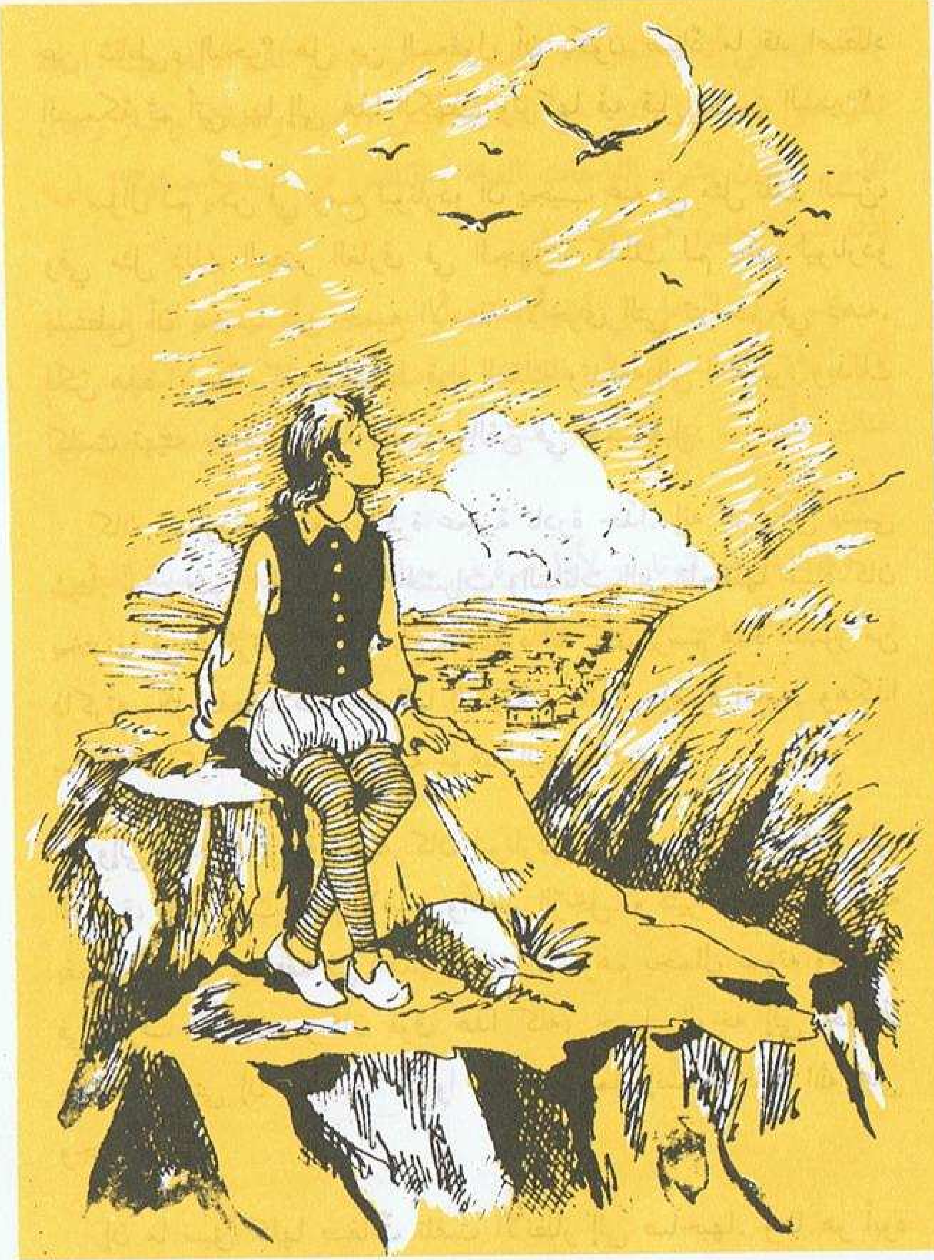
في هذا الجوّ الكئيب عاش ليوناردو. وحين بلغ السّابعة من عمره ذهب إلى المدرسة. وهناك لاحت عليه أمارات التفوّق على أقرانه. كان يتعلم دروس الصّرف والنّحو وتعاليم الدّين ومبادىء الحساب. وقد استوعَبَها جميعاً بسُرعة أذهلت معلّميه، مما جعله يشعر بتفوّقه المبكّر. فانصرف عن مدرسته الابتدائية على أساس أنّها لن تعلّمه أي شيء يطمح إليه. وهَكذا شرع يتغيّب عن المدرسة في معظم الأحيان، ويقضي نهاره متجوّلاً في الحقول وبين الصّخور والتّلال المحيطة بالقرية.

في هذه البيئة من جمال الرّيف وما فيه من أصناف النّبات والحيوان

الأليفة والحشرات العجيبة ، وجد ليوناردو مدرسةً جديدة تختلف عن مدرسته السّابقة. لم يكن هنا معلّمون ولا كراريس ولا أوراق أو أقلام.. وكان كلّ ما فيها من نبات وجماد يدفعه إلى مراقبته. إنه يوقظ في عقله المتفتّح حبَّ المعرفة، ويملأ ذهنه بالأسئلة المحيّرة التي تحثّه على أن يبحث لها عن أجوبة مُقْنِعَة. ها هو الآن غُلام.. لكن، ما لَه يجوب الحقول؟ آه.. إنه يركض وراء فراشة جميلة ويدركها. لقد جلس الآن عند صخرة يتأمّل جُندباً التقطه بيده.. ويملُّ من الجلوس، فيصعد إلى رأس تلَّة كي يطلق بصره الذّاهل وراء الطّيور المحلّقة في قُبّة السّماء. ومن بعيد تلوح له قطعان الغنم عند الأفق، فيكاد يلتهمها بعينيه. إنها كتل سوداء تتحرّك وسط مرج أخضر.. ثم يهبط إلى كهف مظلم، فيدخله وهو محملقٌ عينيه خوفًا من العتمة وخشية الحيَوانات المؤذية والأفاعي السامّة التي قد توجد هناك. وهو يخشى ذلك، لكنه لا يتردّد في الدّخول. ذلك أن حُبّ المعرفة والاستطلاع في نفسه أقوى من أي خوف!

ومن السّهل أن نتصوّر ذلك الغلام، والأسئلة المحيّرة تتزاحم في ذهنه حول ما يراه ويراقبه. من أين للفراشة الجميلة ألوانها الساحرة؟ ولماذا يقفز الجندب ولا يزحف كالدّيدان أو يطير في الجو كالطيور؟ بل لماذا تستطيع الطّيور أن ترتفع في الجو؟ والغمامات، كيف تسبح في السّماء؟ ولماذا تظهر حيناً وتختفي حيناً آخر؟

لقد شاهد ليوناردو ذات يوم هيكلاً متحجّراً داخل أحد الكهوف، وكان لسمكةٍ كبيرة.. فوقف أمامه يتأمّله طويلاً وهو يتساءل في حَيرة شديدة: كيف استطاعت هذه السمكة أن تصل إلى هذا المكان البعيد



ليوناردو في أحضان الطبيعة..
إنه يتساءل عن سر الطيران

عن شاطىء البحر؟ هل من المعقول أن يكون صيادٌ ما قد اصطاد السمكة ثم أتى بها إلى هذا الكهف وتركها فيه قبل ملايين السنين؟

سؤالٌ لم يكن في وسع ليوناردو أن يجيب عنه في مثل تلك السنّ، وفي مثل ذلك العصر الغارق في الجهل. كذلك لم يكن ليوناردو يستطيع أن يجيب عن جميع الأسئلة الأخرى التي تتزاحم في ذهنه. لكنّ هذه الأسئلة كانت تنشّط قواه العقليّة وتدفعه إلى التفكير. وبذلك كانت تهيّئه لحياة المعرفة والعلم والفنّ في المستقبل.

كان ليوناردو يتمتّع بذاكرة عجيبة نادرة جدًا. إنه لم يكن ينسى شيئاً. حتى صُور الحيوانات والحشرات والنباتات التي تلحظها عيناه كان يختزنها في ذاكرته. بل لقد بلغ من أمره أنه كان يرسم هذه الصورَ من ذاكرته بكل تفصيلات أعضائها الدقيقة وكأنها حاضرةٌ أمامه. وهكذا ساعدتْهُ ذاكرته كثيرًا في تنمية موهبة الرسم لديه.

وإلى هذه الموهبة الفنيّة كان ليوناردو مغرماً بالغِناء والعزف على القيثارة، كما أحبّ نظم الأغاني وأشعار الزّجَل. وكثيراً ما سَحَر سامعيه بفصاحة نطقه وتدفّقه في الحديث كما سحرهم بجمال صوته ومهارته في عزف الألحان. وكان فوق هذا كلّه، جميلَ الوجه إلى حدٍّ لا يوصَف، حتى إنّ معاصريه كانوا يَعدُّونه أجمل إنسان خلقه الله على وجه الأرض.

إن ما سبق كلها صفاتٌ تلفت الأنظار إلى صاحبها. وها هو أبوه أول من يفطن إلى ذلك. فقد دهش «بيرو دي ڤنشي» لرسوم ولده ليوناردو. وسرعان ما أدرك بحسّه التجاري الخبير أهميّة الكنز الذي

يملكه ابنه في أنامله الطريّة. كيف لا، والرسمُ في تلك الأيام مهنةٌ رابحة تدرُّ على صاحبها كثيراً من المال! أليس الأمراء والنبلاء وكبار رجال الدّين مولعين بشراء اللوحات الفنيّة والتّنافس في اقتناء أجملها؟! بلى، إذنْ فليربح «بيرو دي ڤنشي».

ولم يتردد الرجل في تحقيق ما خطر له، حين رأى رسوم ابنه الجميلة لأول مرّة. لقد حملها إلى فلورنسا ليعرضها على «فيروكيو» أشهر رسّام هناك. فأُعجب بها فيروكيو كثيراً وأبدى رغبته في أن يتتلمذ صاحبُها على يديه.

وهكذا سافر ليوناردو لأوّل مرة في حياته إلى فلورنسا، مدينة القصور والأمراء والثروات الطائلة، وهو في الرّابعة عشرة من عمره.

التلميذ النابغ

كان «فيروكيو» يملك في فلورنسا داراً كبيرة واسعة يعيش فيها مع عدد من تلاميذه. وكان أهل هؤلاء التلامذة يأتون بهم كي يتعلّموا مهنة التصوير والنّحت لِقاءَ أجرٍ معيَّن يدفعونه له. وهكذا كانت دار الفنّان أشبه بالمعاهد الدّاخلية المعروفة في أيّامنا.

ولم تكن دراسة فن التصوير والنّحت في تلك الأيام مقصورة على تعلُّم الرّسم والتلوين ومعالجةِ الطين حتى يتّخذ شكلَ النّموذج المطلوب للتّمثال. وإنما كانت تتطلّب الإتقان لعدَّة مِهَنٍ خارجة عن نطاق الفن أيضًا. إنها تقضي بتعلُّم مهنة الصياغة للتزيين بالذهب والفضّة، وقواعد تركيب الألوان، وأصول صناعة القوالب الضرورية للتماثيل، وصبِّ المعدن الذّائب في هذه القوالب. لذا كانت الدراسة تستغرق ستَّ سنوات يقضيها التلامذة في تعلُّم الرّسم والتلوين وبقية المهارات الضرورية. كما يساعدون أستاذهم في إنجاز مختلف الأعمال الفنية التي يكلّفه بها الأمراء والأثرياء.

ولقد كان الأستاذ فيروكيو واسع الاطلاع، فهو يعشق كُتب الرّياضيات والطبّ والكيمياء والفلَك وعلم طبقات الأرض. لهذا نجده يحرص على إنشاء مكتبة قيّمة في داره. وكان معظمها من المخطوطات، إذ كان فنُّ الطباعة لا يزال في عالم الغيب آنذاك.

في دار فيروكيو وجد الفتى ليوناردو نفسه في المكان الملائم. إن بين يديه الآن ما يحتاجه من المواد والأدوات والكتب. أما دروس الأستاذ ولوحاته وخبرته الواسعة فقد جعلت الغلام ينصبُّ على الدراسة بحماسةٍ عظيمة. فلم يلبث ذلك أن لَفَتَ إليه أنظار أستاذه، وسهَّل عليه الظَّفَر بمحبّة أقرانه وتقديرهم الكبير. بل لقد بلغ من ثقة الأستاذ بمهارة تلميذه النابغ أن أخذ يكلِّفه أن يرسم أجزاء كاملة من لوحاته هو. فكان ليوناردو يرسم هذه الأجزاء ويلوّنها بإتقان يُقاربُ، من حيثُ الجودةُ والجمال، الأجزاءَ التي كان يرسمها الأستاذ نفسه.

الصورة العجيبة

وممّا يروى عن مهارته الفنية في هذا العهد الباكر من عمره، هذه القصة الطريفة:

جاءَ فلّاح من ضاحية (ڤنشي) إلى والد ليوناردو بقطعة من الخشب، كان الفلاح قد انتزعها من جذع شجرة تينٍ وجعلها على شكل ترس. ثم قدَّمها إليه قائلاً:

«أرجو أن تجد من يزيّن لي هذا الترس الخشبي بصورة ما بالألوان».

فما كان من بيرو داڤنشي إلّا أن عهد بالمهمّة إلى ابنه ليوناردو. فقبل ليوناردو ذلك من أجل أن يكسب عطف أبيه. لقد أخذ قطعة الخشب وقوَّمها من بعض اعوجاج وجده فيها، حتى استقامت من كلِّ الجوانب. ثم طلاها بطبقة رقيقة من الجِبس وتركها تجفُّ كي تكون صالحة للرسم والتلوين. وانقضت على ذلك عدةُ أسابيع، والفتى يقلّب في خياله فكرةَ الصورة وتصميمها بالرسم وتصويرها بالألوان والظلال.

وفرغ منها أخيرًا، وإذا هي آية رائعة يحسبها الناظر إليها تكاد تَثِبُ من صفحة الترس وتخرج إلى عالم الواقع من شدّة البروز. وتركها ليوناردو حيث كانت، في القبو. وكان القبو مظلماً تماماً إلا من ثقبٍ واحد كانت تنسلُّ منه حزمة من شعاع الشمس وتنصبُّ على اللوحة وحدها. في تلك الزاوية وضعها الفتى النابغة على الخصوص. وكان هدفه أن يجعل من الأمر مفاجأة لأبيه حين يأتي لاستلام الترس الخشبي.

وجاء أبوه بعد حين. وكانت المفاجأة فوق ما توقّع الفتى. فلم يكد بيرو دافنشي يفتح باب القبو المظلم، ويلقي نظرةً داخله، حتى ارتدَّ مذعوراً. مسكين! لقد جعل يجري هاربًا من المشهد المخيف الذي فاجأه، والرّوائح الكريهة التي هبَّت عليه دفعةً واحدة. أما ليوناردو فقد كاد ينفجر من فرط الضحك. وقد لحق بأبيه يصيح به: «ارجعْ يا أبي».

وقال له الوالد:

ـ ما الذي في القبو؟ حيّات شيطان، جثث قتلى؟

ـ كلا، هو الترس، وقد رسمتُ عليه الصورة.

ـ والرائحة!!

ـ هي الأصباغ المتعفّنة بفعل الرطوبة.

وعاد الأب مع ابنه إلى القبو، ووقف أمام الصورة يتأمّلها بعينين جاحظتين من الرعب، على الرغم من قناعته التامة بأنها مجرّد صورة لا أكثر.

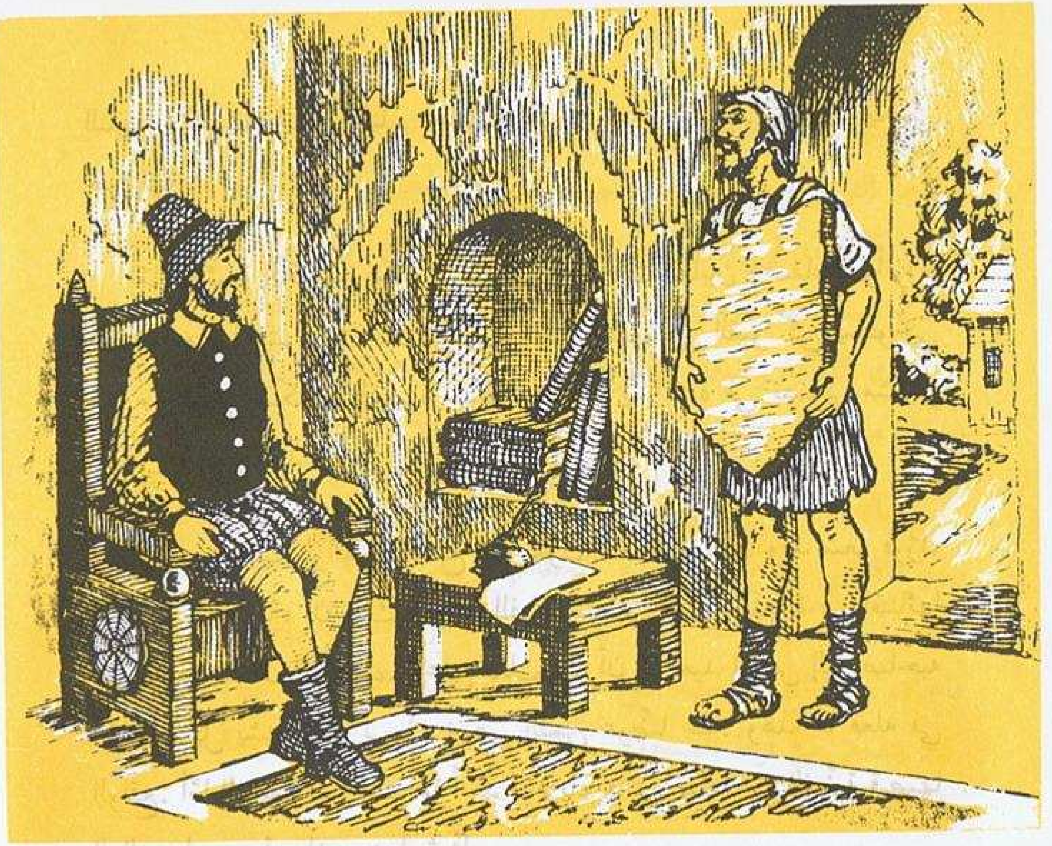
والحق إنها كانت مخيفة بالفعل. لقد مثّلت رأس حيوان عجيبٍ شبيه بالتّنين الخرافي. ومن مِنخَريه الواسعين كانت تخرج أنفاسٌ بلون لهيب

النار. وكانت حُمرة النار حقيقية إلى درجة أن المرء يكاد يحسُّ حرارتها.

أمّا الرّائحة الكريهة فكانت تنبعث من جثث ثعابين وضفادع وأنواع مختلفة من الحشرات، كان ليوناردو قد جمعها في القبو كي يستوحي من مجموع أشكالها المثيرة شكلاً موحّداً يساعده في تصوير مشاعر الذُّعر والفزع عند الناظر إليه.

كان إعجاب الوالد بما صنع ابنه يفوق حدَّ الوصف. وقد شعر فورًا، بحاسَّته التجارية، أن تلك التحفة الفنيَّة ستلاقي رغبةً شديدة في اقتنائها عند هواة التحف الأثرياء. وعلى ذلك قرَّر أن لا يعيد الترس إلى صاحبه الفلّاح، بل يشتري له ترساً رخيص الثّمن عوضًا عنه. وهذا ما فعله في الواقع. أمّا التحفة فقد اشتراها أحدُ الأثرياء بمائتي قطعة من الفضَّة قبضها الوالد ولم يعطِ ولده منها شيئًا.

لم يحزن ليوناردو كثيراً ولا قليلاً لحرمانه من ثمار عمله. فلم يكن من ذلك الصنف من البشر الذين لا يجدون في العمل إلّا وسيلة لكسب المال. بل كان يرى في مجرَّد العمل قيمةً أكبر بكثير من أن تقاس بالذهب أو الفضة. كانت سعادته الكبرى هي مباشرة العمل. ولهذا كان يحرص على إتقان أعماله جميعًا، سواءً أكانت لوحة فنيَّة، أم تصميمًا هندسياً أم غير ذلك. والواقع أن حِرْصَه الشديد على الإتقان كان أحدَ الأسباب التي جعلته يعيش في حالةٍ هي أقرب إلى الفقر منها إلى اليُسر. مع أن هذا لا يتناسب أبداً مع ما بلغه من المهارة والشُّهرة في أوروبا بأسرها.



الفلاح والترس وبيرو دي ڤنشي

ولم ينظر ليوناردو إلى حياته هذه بشيء من عدم الارتياح. إنه لم يكن يهتم بالمال إلّا من أجل توفير ما يحتاج إليه من المواد والأدوات اللازمة لأعماله، وتوفير الكفاية لنفسه من حاجات المعاش.

والواقع أن حاجته إلى المال لم تواجهه إلا بعد ستّ سنوات على دخوله معهد الأستاذ فيروكيو، إذ استطاع بسهولة فائقة أن يحوز الوثيقة الرسمية التي تعترف به فنّاناً ممتازاً من الدّرجة الأولى وتمنحه حقّ العمل لحسابه هو. عند ذلك كان المفروض بليوناردو أن يترك دار أستاذه ويتّخذ لنفسه مكاناً يمارس فيه مهنته لحسابه الخاص. هكذا يفعل

التلامذة بعد انتهاء دراستهم. أما ليوناردو فقد فضّل البقاء مع أستاذه ستّ سنوات أخرى.

لماذا؟

ربّما لأنه تهيّب مواجَهة الحياة المستقلّة وتحمُّل تكاليفها المادية الباهظة. وبخاصةٍ أنه كان يستغرق في عمله حتى لا تعود لديه فرصةٌ للتفكير بهذه التكاليف. قد يكون هذا سببًا. وقد تكون صداقته الحميمة لأُستاذه الطيّب هي التي حبّبت له البقاء في جواره. بل لعلَّ مكتبة فيروكيو هي التي أغرته بالبقاء إلى جانبها.. كيف لا يبقى وقد وجد فيها من المعارف ما يُتيح له أن يُعوِّض به عمّا فاته من قبلُ! كل هذه الأسباب قد تجمّعت بصورةٍ أو بأخرى وجعلته يفضّل البقاء حيث هو.

وهكذا، تابع الشابّ حياته الماضية. وزاد عليها أن انصرف إلى الدّراسة. وقد شعر من خلال مطالعاته المتنوّعة في شتّى مجالات المعرفة: كالرياضيّات، والطبيعيّات، والكيمياء، والفَلَك، والفلسفة، أن مواهبه قد شرعت تتفتّح. واستولى عليه العِلم والدراسة. لقد غاص في بحاره، وبات على يقينٍ من كونه لم يُخلق ليكون مصوّراً فحسب، بل عالماً ومهندساً ومخترعاً وفيلسوفاً أيضاً.

مواهب متعدّدة

أخذت أشغال ليوناردو تتنوّع وهمومه الثقافيّة تتعدّد حتى أصبحت أوقاته موزعة جدًّا. لقد عجز عن التركيز على عمل واحد ينصرف إليه حتى يفرغ منه. فكثيراً ما بدأ برسم صورة أوصاه عليها أحد الأثرياء، ثم ما لبث أن استغرق في عمليّة تركيبٍ كيميائي هدفُه الحصول على ألوان جديدة يريدها للصورة... ثم تمضي الأسابيع.. وهو منهمك في تجارب متلاحقة في سبيل ذلك. وبعد هذا ينسى أمر الصورة المطلوبة ولا يعود يذكر إلّا ما حصل عليه من ملاحظات تتعلّق بالتركيب الكيميائي للألوان.

وكثيراً ما كانت تطرأ على باله فكرة اختراعِ لآلةٍ ميكانيكيّةٍ ما، أو تشدّه الرّغبة في تشريح جثّة حيوان ودراسة تركيب أعضائه الداخليّة.. مع أنه يكون منهمكاً في عملٍ آخر قد طُلب منه لقاء أجرٍ محترم. وعند ذلك لا يتردّد في ترك هذا العمل فوراً، والانصراف طوال أسابيع كثيرة إلى رسم التصاميم الخاصة بتلك الآلة... أو تشريح جثّة الحيوان، وتسجيل ملاحظاته عن تركيب أعضائه. وكان يكتب ذلك بخط عجيب لا يمكن أن يقرأه غيرُه.

كيف كان يكتب؟

كان ليوناردو يحرص على كتابة ملاحظاته العلميّة في اتجاه معاكس

للاتجاه المألوف، بحيث لا تصحُّ قراءتها إلّا بوضع مرآة قُبالة السطور المكتوبة. وبعد هذا يمكن فكُّ رموزها على صفحة المرآة لا صفحة الورق.

فلماذا كان يعمد إلى هذه الطريقة؟

لقد كان يفعل ذلك خوفاً من أن تتسرَّب أفكاره العلمية إلى أحدٍ غيره، ومخافة أن يتّخذها أعداؤه وسيلةً للوشاية به عند أمير فلورنسة. وكان الاهتمام بالمسائل العلميّة في ذلك العهد الغارق في الجهل والتعصُّب الديني الأعمى.. مخالفًا لتعاليم الكنيسة. وكان مثل ذلك النشاط يعرِّض صاحبَه للاتِّهام بالكُفر ويجرّ عليه النقمة من رجال الكنيسة والحكّام وأفراد الشعب على السواء.

في تلك العهود المظلمة عرف التاريخُ أكثر من حادثة واحدة عن عالِم تعرّض لاضطهاد الحكّام ونقمة الكنيسة. ولعلَّ أبرزها حادثة العالم «غاليليو» الذي عاش في العصر التالي لعصر ليوناردو دي ڤنشي. كان هذا العالم الفلكيّ يقول: «الأرض كرويّة وليست مسطّحة. وهي تدور على محورها دورةً وحول الشمس دورة أخرى». ونقل بعض الناس أقواله هذه إلى الحكّام ورجال الدين فهدّدوه بالتّعذيب حتى الموت. وحين تأكّد من الجدّ في تهديدهم، فضّل لنفسه الحياة. وهكذا أجبروه على إنكار أقواله العلمية الصحيحة وهو راكع على ركبتيه أمام النّاس. وقد أصرّوا على أن يفعل ذلك.. إذلالاً له وتحقيرًا لأفكاره. ويومئذ كان «غاليليو» المظلوم شيخاً جليلاً طاعناً في السنّ.

على هذه الصورة كانت ظروف الاشتغال بالعلم في تلك العهود.

ومما زاد في قساوتها على ليوناردو، أنه كان رجلاً مخلصاً للحقيقة، لا يعرف الرِّياء ولا يتقن فنون الخداع والكذب. هذا علاوة عن أنه كان بطبعه ميّالاً إلى الانزواءِ واعتزال الناس، كما كانت طريقته في العمل تسير حسب مزاجه المتقلّب والموزَّع ما بين أعمال مختلفة. فجرّ عليه ذلك الكثير من سوء الحال. هاهم الأمراءُ والحكّام لا يغامرون بطلب لوحة يصوّرها لهم. نعم، إنهم يقدِّرون مهارته ويشهدون له بالتفوّق على جميع زملائه المعاصرين كافّة. هذا صحيح.. ولكنّهم لا يأملون قط أن ينجز ما يطلبونه منه في الموعد المقرّر ولا بعده بزمنٍ طويل. ولقد حاولوا أن يغروه على ذلك بالمال. لكن هذا لم ينفع في إزالة تلك العادة من نفسه.

ها هنّ سيّدات الطبقة الراقية يتبادلن عنه بعض النّكات الساخرة. كانت إحداهن تقول للأخرى:

- «إيّاكِ أن تطلبي صورة لك من ليوناردو دي ڤنشي».

- على العكس، إنه مصوّر عبقري! وأنا أفكّر حقًّا في ذلك.

وتنفجر الأولى ضاحكة ساخرة:

- إذن لن ينجزها لك إلّا وقد صرتِ عجوزًا هرمة.

وتضيف أخرى:

- وقد يتسلّمها أحفادك!

ويبلغ ذلك مسامع الفنان العظيم فيتألم أشدّ الألم. إنه يشعر بعجزه عن مغالبة مَيْله الجارف للعلم والاختراع وعن تغيير طريقته الفوضويّة في

العمل. ولهذا فهو يتمنّى لو يُتاح له أن يعيش تحت رعاية أمير فلورنسا، فيضع في خدمته كل ما يملك من مواهب مقابلَ مرتّب سنوي يدفعه إليه. إذ ذاك يريحه الأمير من همّ المعاش والحصول على المواد والأدوات الضرورية، ويوفّر له الانصراف التام إلى أعماله الفنيّة والعلميّة واختراعاته العجيبة.

لكنَّ أمير فلورنسا لا يبدي أيّة علامةٍ على ذلك، على الرغم من تقديره لمواهب ليوناردو ولشخصيته النادرة. إنه على يقين من عدم إمكان انتفاعه بمواهب الشاب، نظرًا لما يُشاع عنه من تباطؤ في العمل.

وهنا تدخّل القدَر. لقد طرأ ظرف استثنائيّ على أوضاع إمارة توسكانيا. وتفصيلُ الأمر أن البابا يومئذٍ أعلن الحرب على الأمير. وكذلك فعل ملك نابولي. وكلاهما كان صديقًا لأسرة (باري) الفلورنسية التي سبق للأمير أن قتل منها ثمانين رجلاً تقريبًا. لماذا يا تُرى؟ لأنهم كانوا قد اشتركوا في مؤامرة لاغتياله هو وشقيقه. للقضاء نهائيًا على حكم أسرة (المدتشي) في فلورنسا، وتسلُّم السلطة مكانها. يومئذ قُتل الشقيق ونجا الأمير الحاكم. فسارع إلى الانتقام من المتآمرين بمذبحةٍ قضت عليهم جميعًا.

وعندئذٍ تحرّك البابا من جهة، وملكُ نابولي من الأخرى. وكانا يطمعان في اكتساح الإمارة وإخضاعها لنفوذهما المشترك. فوجدا فيما حدث أخيراً حُجّة كافية لإعلان الحرب، ثمّ الزحف بجيوشهما على فلورنسا. وقد تمّ الزحف فعلاً حتى بات جيشاهما على أبواب عاصمة غريمهما الأمير. فطوّقاها من الجانبين وضربا عليها الحصار.

في تلك الأيّام لم يكن لرجل عالِمٍ وفنّان مثل ليوناردو أن يهتم بما يجري حوله من أحداث خطيرة. كذلك لم تكن الروح الوطنية المعروفة في أيامنا، قد استيقظت بعد في نفوس الناس. لقد كانت تغلب عليهم روحُ التحزُّب لأُمرائهم انطلاقاً من مصالحهم الخاصة. وكان أهالي فلورنسا يكرهون الحروب ويحبّون السلام. أليس هو الذي يُتيح التفرُّغ لتعمير مدينتهم وتنشيط أعمالهم: من زراعة، وصناعةٍ حِرَفيَّة، وبناء قصور وجسور على الأنهر! إنه هو الذي يوفّر لهم المجالَ للاهتمام بأعمال الفن والشعر والموسيقى والهندسة وإقامة المهرجانات الاحتفاليّة في شتى المناسبات. ولقد اشتُهرت فلورنسا، آنذاك، بكونها مدينةَ المصوِّرين والشّعراء والموسيقيين بل الفلاسفة أيضًا. لقد اضطرَّهم الفتحُ العثماني للقسطنطينية إلى الهرب بأنفسهم واللجوء إلى إيطاليا، وهناك لم يجدوا أفضل من فلورنسا مدينةً يقيمون فيها.

وبالاختصار، لم تكن الحرب الطارئة لتهمَّ ليوناردو إلّا من ناحيةٍ واحدة. فقد نشأت بسببها حاجةٌ ملحّةٌ إلى تأمين الدفاع عن مدينته. ولمّا كان مواطنوها أناساً مسالمين لا يتقنون فنون القتال والحرب، فقد وجد ليوناردو أن حاجة الدفاع تقضي باختراع أسلحةٍ جديدة تفاجىء المهاجمين بما لا يتوقّعون، وتُرغمهم على فكِّ الحصار عن المدينة.

ولهذا شرع العالِمُ المخترع في شحذ دماغه لوضع خطط دفاعية وهجومية معًا، واختراع مَركبات حربيّة ومدافع وبنادق لهذا الغرض. وأخذ يضع رسوم تلك الأسلحة وتصميماتها، حتى يتيسّر للصنّاع أن يطبّقوها. فماذا كان هدف ليوناردو من ذلك؟ إنه لم يكن يرجو غير أن يحظى عند الأمير بتحقيق أمنية العمر، فينقله إلى جناح خاص في قصره،

ويجعله مستشاراً له في شؤون الحرب وخبيرًا في الشؤون الأخرى المتعلّقة بالإمارة. يضاف إلى ذلك أنه جدير بأن يكون المصوّر لبلاط الأمير.

لكن أحلامه لم تلبث أن تبخّرت دفعةً واحدة. فقد كان الأمير من الحكمة وبُعد النظر بحيث أفلح في معالجة مشكلة الحرب والحصار على أهون سبيل. لقد طلب هدنة مؤقتة من البابا والملك، موهماً إياهما بأنها فرصة للتفكير بالاستسلام. فوافقا على ذلك. أليست جيوشهما تحاصر عاصمته؟ وفي تلك الأثناء اغتنم الأمير فرصة الهدنة وذهب بنفسه إلى نابولي. وهناك اجتمع بالملك وأغراه باتفاق يضمن له مصالحه. وبهذا استطاع أن يَفْصِم التحالُفَ بين خَصمَيه. فانتهت الحرب وجلت الجيوش عن أبوب المدينة، فانطلقت فلورنسا تزغرد فرحًا بعودة السلام من جديد.

أمّا ليوناردو فقد أخذه حزنٌ شديد. لقد زالت الحاجة إلى أسلحته الفتّاكة التي بقي جاهداً، في اختراعها ورسم تصاميمها شهورًا طويلة!! هاهو يطوي أوراقه خائباً. لقد أحسَّ أن الحظ غريمه في الحياة، وأنَّه لم يبقَ له، هو، إلّا أن يرحل عن فلورنسا التي لا تعطيه ما يستحق من حقوق.

ويرى بعض المؤرخين أن هناك حادثة معيّنة كانت هي السببَ الذي دفعه إلى مثل هذا التصميم. فقد عَمَدَ فريق من أعدائه إلى كتابة رسالةٍ دون توقيع أرسلوها إلى مجلس القضاء في فلورنسا، وضمّنوها فضيحة أخلاقية زعموا أن ليوناردو كان أحد المشاركين فيها. لذا طالبوا بالقبض

عليه ومعاقبته. فاهتمّ مجلسُ القضاء للحكاية واستدعى إليه المتَّهمين ومن بينهم الفنّان العالم. ثم جرت محاكمتهم في المدينة.. ولم تثبت التهمة على أحد منهم، فأُعلنت براءتهم جميعاً.

غير أن إعلان البراءة لم يضع حدًّا نهائيًا لهذه الحكاية الملفَّقة. فما لبث الفنّان أن وجد نفسه محاطاً بجوٍّ من الغَمْز والتهامس اللئيم الموجع، بحيث لم يجد ليوناردو مفرًّا من مغادرة فلورنسا نهائيًا.

والآن، إلى أين يذهب؟

هل يعود إلى قريته المغمورة المتواضعة؟ إن ذلك لا يعني غير القضاء التام على مستقبله. وإذن فلْيقصد (ميلانو) في الشمال. إنها تضاهي فلورنسا نفسها في الغنى والعمران. وكان يحكمها رجل قويّ من أسرة (سفورزا) اسمُه (لودفيكو). وكان أسمر اللون فسمّاه أهل المدينة «المغربي».

كان «المغربي» يحكم ميلانو كوصيٍّ على ابن شقيقته الصغير (جيان). وكان يفكّر في التخلُّص منه حين يمكنه ذلك ليصبح هو الحاكمَ الشّرعي للمدينة.

ولقد سمع ليوناردو باسم هذا الرجل، وعرف أنه الحليفُ القويّ الدائم للأمير لورنزو. فرأى الفنّان من الأنسب أن يجعل لورنزو واسطة له عند «المغربي» كي ينتقل إلى ميلانو. لذا أرفق مسعاه بهديَّة ثمينة قدّمها للورنزو، وكانت عبارةً عن قيثارة من الفضة صاغها خِصّيصاً لهذا الغرض. وقد جعلها على شكل جمجمة حصان، كما جعل الأضراس فيها هي المفاتيح التي تُشدُّ إليها الأوتار. وهكذا جاءت القيثارة تحفة

فريدة في جمال الصّنعة وطرافة الابتكار. وكان إعجاب لورنزو بهديّة الفنان عظيماً، حتى اعتبرها من أجود ما يتهادى به الملوك والحكّام. ولذا قرّر أن يبعث بها مع ليوناردو إلى صديقه وحليفه القويّ «المغربي»، ومعها رسالة توصية بِ ليوناردو.

وهكذا غادر الفنّان العبقري مدينة فلورنسا، عام (١٤٨٠)، قاصداً ميلانو.

في معترك الحياة

وصل ليوناردو إلى ميلانو فذهب لمقابلة الحاكم لودفيكو «المغربي». وقدّم إليه رسالة الأمير لورنزو والقيثارة الفضيّة، فسُرَّ الحاكم بالرسالة وأُعجب بالقيثارة غاية الإعجاب. ولمّا علم من ليوناردو أنه هو الذي صنع القيثارة وأنه يجيد العزف عليها دعاه إلى الاشتراك في الحفلة الموسيقية التي كانت ستقام في قصره في تلك الليلة. فلم يتردّد ليوناردو لحظة في قبول هذه الدعوة الكريمة. أليست مفتاحًا لباب الأمل عنده!! لقد أدرك ليوناردو أن تحقيق أمنيته الكبرى في الحياة يتوقف على ما يُظهره من مهارة في العزف والغناء أمام الحاكم ومدعوِّيه النبلاء.

وهذا ما حدث فعلاً في تلك الليلة. فما كاد العازفون والمغنّون الذين أعدّهم الحاكم ينتهون مما عندهم من ألحان وأغانٍ، حتى قدَّم لودفيكو إلى مدعوِّيه ليوناردو على أنه «العازف الفلورنسي الشهير»، فصفّق القوم بحرارة لتلك المفاجأة.

أخذ ليوناردو قيثارته الفضية وشرع يعزف عليها لحناً رائعاً كان قد وضعه هو. وقد بقي الحاضرون أمامه يكتمون أنفاسهم تقديراً لأنغامه واستحساناً لها. يومذاك ترنّحت الرؤوس وأخذت آهاتُ الطرب تتوالى من هنا وهناك. وأدرك ليوناردو أنه قد امتلك قلوب الحاضرين، فازدادت أنامله الرشيقة حماساً في العزف. ولقد أبدع.. وأجاد، حتى باتت

القيثارة الفضيّة بين يديه ينبوعاً تتدفّق منه ألحان سماوية ساحرة. ثم إنه أطلق صوته الحنون العذب بأغنيات فلورنسية لم يسمعها أهل ميلانو من قبل. فضجّت الحناجر من شدّة الطرب. وكانت بهجة الحاكم تفوق حدَّ الوصف لما شاهده من آثار مفاجأته السعيدة هذه، على وجوه ضيوفه.

وانتهت الحفلة في آخر الليل.. وهمَّ ليوناردو بالانصراف مع سائر المدعوّين، غير أن لودفيكو دعاه للبقاء في ضيافته. فقبل شاكراً وهو يحسُّ في تلك الدعوة بشيراً بتحقيق أمانيه.

على أن الفنّان العالِم لم يلبث أن أدرك، بعد أيّامٍ قليلة من إقامته في القصر، أن أحلامه الجميلة لم تكن إلّا قصورًا مبنيّةً على الرمال. ذلك أن سيّد القصر لم يكن يصلح أبداً لأن يكون راعياً لأمثاله من أهل الفن والعلم. فهو في الواقع رجلٌ وحشيّ الطباع لا يهمُّه غير التفكير بالدّسائس والمؤامرات السياسية التي تتيح له أن يستولي على الحكم في ميلانو بعد أن يتخلّص من ابن شقيقته. وكان بالإضافة إلى ذلك، رجلاً مستهتراً يعشق الملذّات والخمر والليالي الساهرة والمهرجانات الصاخبة. أما روائع الفن والأفكار العلمية والمنشآت العمرانية في الصناعة والزراعة وهندسة المدن؛ فلم تكن تظفر من عقله بأي اهتمام.

وخشي ليوناردو أن يحسبه هذا الحاكم الدّاهية مجرّدَ عازفٍ أو مغنٍّ لا يُحسن إلّا إثارة الطرب في الحفلات، وهو أمر لا يقبله ليوناردو، لما ينطوي عليه من احتقار بالغ لعبقريته. لذلك رأى من الأصلح أن يعرّف الحاكم بما يملك من مواهب وكفاءات، فيشرح له مختلف الأعمال المهمّة والمشروعات الخطيرة التي يستطيع أن يحقّقها لخير ميلانو.

ومن أجل ذلك أعدَّ ليوناردو قائمةً كتب فيها:

أولاً: إني أستطيع بناء جسور نقّالة عظيمة الفائدة في مطاردة العدوّ أثناء الحرب أو الفرار منه بنجاح. وهي جسور خفيفة وقويّة في آن واحد، كما يسُهل فكُّها وتركيبها بسرعة فائقة.

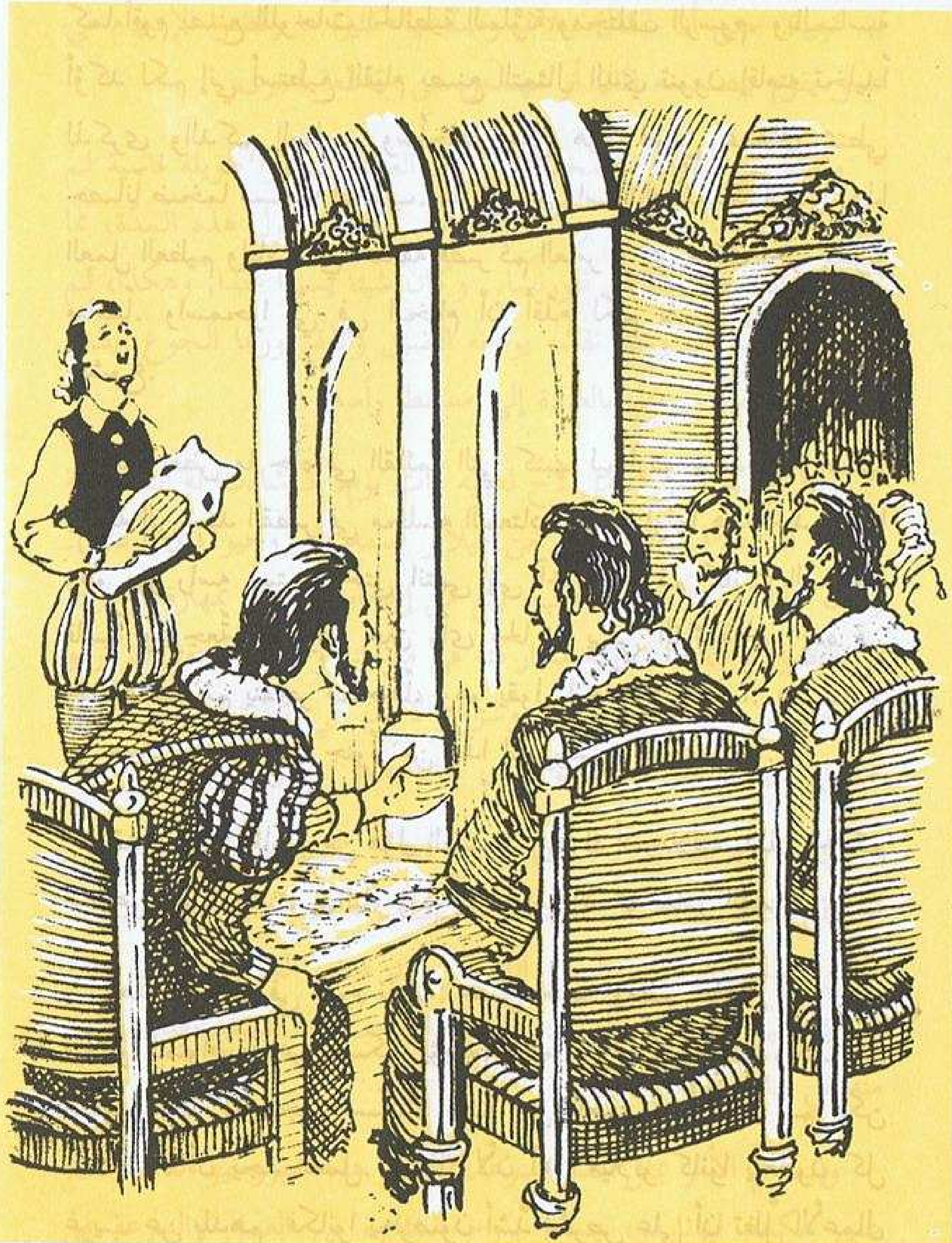
ثانيًا: في حالات الحصار المضروب على قلعة للأعداء يمكنني، بوسائلي الخاصة، تفريغ المياه التي تملأ الحُفَر والخنادق من حولها. وعندي لهذا الغرض آلات حديدية وسلالم تنفع في تسلُّق الجدران العالية.

ثالثًا: إذا كان هناك نهرٌ يمنع الاشتباك بين جيشين، فأنا أستطيع تغيير مجرى النهر وتحويله ضدَّ العدو. كما أُحسِن حفر الخنادق والأنفاق تحت الأرض بحيث يتمكّن المهاجِمون من بلوغ القلعة المحاصَرة في سِريَّة تامة ومباغتة العدو من الداخل.

رابعًا: أستطيع بناء مركباتٍ مصفَّحة بالحديد ومجهَّزة بالمدافع وقاذفات النيران. كما أن بمقدوري صناعة قنابل يدوية محرقة تلتهم جنود العدوّ عند الهجوم. وهناك آلة جهنَّميَّة أستطيع صنعها، وتكون مُجهَّزةً بسكاكين ضخمة لها أسنان مثل أسنان المنشار. ومن شأنها أن تقطع أجسام العدوّ عند زحف جنوده.

خامسًا: في أيّام السِّلم أستطيع أن أحوز رضاءكم التام فيما يختص بتشييد العمارات والأبنية والجسور فوق الأنهر وإقامة السدود ومدّ الأقنية الصَّالحة للريّ. وبوسعكم أن تتأكّدوا من ذلك.

سادسًا: إني أقوم بنحت التماثيل من المرمر والبرونز والصلصال،



ليوناردو يعزف على قيثارته الفضية

كما أقوم بصنع اللوحات الحائطية الملوَّنة ومختلف الرسوم. وبالمناسبة أؤكد لكم إني أستطيع القيام بصنع التمثال الذي تنوون إقامته تخليداً لذكرى والدكم العظيم. وسأجعله على هيئة فارسٍ عملاق يمتطي حصاناً ضخماً مستعداً للوثوب. وأراني على استعداد للمباشرة فوراً بهذا العمل العظيم وإقامته في حديقة قصركم العامر أو أي مكان آخر تجدونه مناسباً. واسمحوا لي في الختام أن أقدّم لكم نفسي وقدراتي في خشوع.

هذا بعض ما جاء في القائمة التي كتبها ليوناردو يومذاك، وحملها بنفسه إلى سيّد القصر في مجلسه المعتاد. فلمّا تناولها هذا أخذ يقرأها وهو يهز رأسه ويبتسم حتى انتهى إلى آخرها. وكم كانت المفاجأة قاسيةً وموجعةً لليوناردو حين رأى الحاكمَ يرمي القائمة من يده في استخفاف، ثم ينفجر ضاحكاً، وهو يقول لجلسائه ساخراً: «أنا لم أرَ في حياتي رجلاً أشدّ جنونًا من هذا الفلورنسي المعتوه...».

لقد صُعق ليوناردو من هَوْل الصّدمة، وأدرك أن علاقته بذلك الحاكم الجاهل قد انقطعت نهائياً، ولم يبقَ أمامه إلا أن يغادر القصر.

وهذا ما فعله في اليوم نفسه: حمل أمتعته ومضى يفتّش في أحياء ميلانو المتواضعة عن مسكنٍ يؤويه، وعمل يوفّر له عيشه. وكان من السهل عليه أن يجد مسكنًا، لكنه من العسير حقًّا، إن لم يكن مستحيلاً، أن يجد العمل. لماذا؟ لأن أهل ميلانو كانوا يخافون كل غريب عن بلدهم. فكانوا يحرصون أشدَّ الحرص على أن تظلَّ الأعمال في مدينتهم محصورة بين أيديهم وحدهم، لا يتسرَّب أيٌّ منها إلى أيّة

يد غريبة. حتى أن عمّال ميلانو وصنّاعها كثيراً ما رفضوا الإسهام في عمل يقوم بتصميمه فنّان أو مهندس من مقاطعة أخرى.

ولهذا بقي العالِمُ والمخترعُ والفنّان العظيم شهوراً طويلة قاسية لم يظفر خلالها بأي عمل. وكان يُنفق على نفسه، طول هذه المدَّة، مما كان قد ادّخره سابقاً في فلورنسا.. وكان شيئاً يسيراً جدًّا. وهكذا، لم يلبث ليوناردو أن وجد نفسه يواجه الضيق والفقر وربما الجوع أيضاً، حتى أخذ يفكر يومئذٍ بالعودة إلى مسقط رأسه.

لكنَّ بصيصاً من الأمل لاح لعينيه ذات يوم، إذ شاءت له المصادفة الحسنة أن يتعرَّف إلى رسَّامٍ من ميلانو اسمه (أمبروجيو دي بردي). وكان هذا نشيطاً طيّب القلب، بلغ من إعجابه الشديد بمهارة ليوناردو في التصوير، أن طلب إليه مشاركته في مسكنه وعمله. فانتقل ليوناردو إلى مسكن زميله الميلانيّ.. وشرع الاثنان في تحقيق صفقةٍ رابحة حصل عليها شقيق أمبروجيو الذي كان يعمل حفّاراً للخشب.

كانت الصفقة تقضي ببناء ضريح فخم، يكون له هيكل من أجود أصناف الخشب، بحيث يتحمل عملياتِ النقش والزخرفة والنحت الناتىء لشتّى الرسوم والرموز الدينية. وقد قبض الفنانون الثلاثة مِئتَيْ «دوكة» قبل المباشرة بالعمل، ثم قبضوا ضعف هذا المبلغ بعد انتهائهم منه في عام واحد.

وإنما تمَّ الأمر بمثل هذه السرعة، بفضل همة أمبروجيو الذي كان، على عكس ليوناردو، يتمتَّع بروح المثابرة في العمل والسرعة في الإنجاز. على أنَّه كان أقلَّ براعةً بكثير من شريكه الفلورنسيّ النابغة في

مجال الرسم والتلوين وابتداع التصاميم والأشكال الجديدة الخلّابة. والواقع أنه كان يعتبر ليوناردو أستاذًا له يتعلّم منه الكثير من أفكاره وخبراته. وهكذا كانت المشاركة بين الاثنين جدَّ موفقة: ليوناردو يصمم ويرسم، وأمبروجيو يقوم بالتنفيذ والتجارة. إذنْ كان العمل يجري على نحوٍ جدَّ مريح للفنّان الفلورنسي المتعدّد المواهب. إنه يترك له من الوقت ما يسمح بالانصراف إلى هواياته الأخرى!!

عرس في ميلانو

في ذلك الحين كان يستبدّ بليوناردو ولعٌ شديد برسم وجوه كبار السنّ الذين امتصَّت الشيخوخة طراوةَ الحياة من وجناتهم وأيبست شفاههم وملأت ملامحهم بالغضون والتجاعيد. فكان يترك مسكن زميله ساعاتٍ طويلةً من النهار يدور خلالها في الأحياء باحثًا بعينيه عن الوجوه الشائخة. وكان يرسمها فوراً، أو يحفظ ملامحها غيباً عن ظهر قلب، حتى إذا عاد إلى مسكنه في المساء شرع يرسمها بدقّة تدلُّ على معرفته التامّة بعلم التشريح.

وفي أحيانٍ أخرى كان ليوناردو يذهب إلى ضواحي المدينة حيثُ يعكف على دراسة الأشجار ومختلف أنواع النبات. وكان يضع لها رسوماً تفصيليّة تبيِّنُ طبيعة تكوينها الدّاخلي. وغالباً ما كان يُرفِق رسومه بشروح وملاحظات علمية قيّمة.

وهكذا وجد ليوناردو نفسه، خلال سبع سنوات قضاها مع أمبروجيو، في ظروفٍ أتاحت له أن يعمِّق معارفه في شتى مجالات العلم والمعرفة. وكانت سوق العمل خلال هذه المدة جيّدة، فمكّنته من ادّخار مبلغ كبير من المال. ومن ثم قرَّر الاستقلال عن شريكه في العمل. لقد رأى أن يؤسّس لحسابه الخاص معهداً لتعليم الرسم والنّحت والتصوير بالألوان. فَوفَد عليه التلاميذ من كل ناحية. وكان صاحبُ

الحظ منهم من يجد لنفسه مكاناً في معهد الأستاذ الفلورنسي الذائع الصيت. وهكذا تيسَّرَ لليوناردو أن يدّخر من أُجور تلاميذه الكثيرين مبلغاً آخر من المال جَعَلَه يطمئنّ إلى مستقبل حياته المعاشية.

على أنّه لم يلبث طويلاً في ممارسة مهنة التعليم. فقد حدث يومئذٍ حادث سعيد أتاح له أن يحقق الأمنية الكبرى التي طالما حلم بها. ففي ذلك الحين كانت «ميلانو» تتهيَّأ لاحتفالات ضخمة تقام بمناسبة زفاف الحاكم الشرعي الشاب، الدوق جيان، إلى ابنة ملك «نابولي». وكان من الطبيعي أن تتّجه أنظار المسؤولين إلى ليوناردو كي يتولّى الإشراف على الاحتفالات وابتكار الزينات اللائقة بمثل هذه المناسبة السعيدة. وبالطبع، لم يرفض ليوناردو مثل هذا الطلب. أليس فرصةً سانحةً تضمن له أن يفرض مجده على كل كبير وصغير من أهل ميلانو!

كان في جملة ما ابتكره ليوناردو، يومئذ، مَمَرٌّ يسلكه العروسان في طريقهما إلى مدخل البرج التاريخي العريق الذي كان مقرًا للحكام من آل سفورزا. وكان هذا البرج مبنيًا بحجرٍ لونُه نحاسيٌّ ضاربٌ إلى الحمرة، مما يجعل منظره العام قاتماً وكئيباً. ولهذا حاول ليوناردو أن يعالج المشكلة بممرّ يخترق فناء البرج الواسع بصفَّين طويلين من شجيرات الورود النضرة. ثم جعل فوق الممرّ سقفاً عالياً على هيئة أقواس متتالية تكسوها الأوراق الذهبية الوهّاجة. بهذه الطريقة استطاع أن يحجب عن أنظار مركب الزفاف قتامة البرج ولونه الكئيب، كما جعل من حول العروسين جوًا مريحًا يملأ النفس بالبهجة والفرح.

كذلك بلغ ليوناردو الذروة في تصميمه لمشهد خارق البهاء والروعة أقامه على أحد جدران القاعة المخصّصة للحفلة الراقصة في تلك الليلة.

المشهد العبقري

كان هذا المشهد يتمثّل أولاً لمنصَّة عريضة قليلة الارتفاع. وعلى الجدار القائم، كان ثمّة هيكل خشبيّ ضخم على صورة نصف كرة أرضية قد دُهنت بالألوان. ووراءها لوحة أخرى بطول الجدار وعرضِه دَهَنها ليوناردو بلون كُحْليّ قاتم، وهو لونُ السّماء في الليل. ثم إنه رصَّع اللوحة بنجوم ذهبية وهَّاجة. وكان على جانب من نصف الكرة جبلُ «الأولمب» المعروف في أثينا بكونه جبل الآلهة. والمدهش الرائع في هذا التركيب أن ليوناردو رتّب النجوم بحسب نظامها الفلكي المعروف باسم «دائرة البروج». وكانت الكواكب السبعة الرئيسية في هذا النظام تتحرَّك بآلة ميكانيكية مخفيَّة عن الأنظار، وتدور حول القمر. وقد حرص ليوناردو يومئذ على أن يجعل في لوحة السماء هذه، سيلاً من النور يخترقها من جانب إلى آخر وهو يتموّج ويتلألأ باستمرار. وكان هذا إشارة إلى منظومة النجوم المعروفة باسم «نهر المجرَّة» في علم الفلك.

هذا هو المشهد الرائع الذي صمّمه ليوناردو وأخفاه وراء ستائر مخمليّة كانت تتدلّى من السقف حتى الأرض. فلمّا انتصف الليل وتعب الراقصون من الرقص فجلسوا إلى أماكنهم يستريحون، فوجئوا بالستائر تنزاح بغتةً أمامهم على وقع أنغام الموسيقى. وإذا هم حِيالَ مشهدٍ مذهل للأبصار لم يسبق لهم أن رأوا مثله في العمر.

وقد بلغت دهشة الحاضرين أشدَّها حين شرع موكبٌ من الراقصات يطفُرن إلى المنصّة. لقد ظهرن ناشراتٍ أوشحتهن البيضاء المتطايرة،

ويلوّحن بأرديتهن المرصّعة بالجواهر، حتى حسِب الحاضرون أنفسهم قد انتقلوا بغتة إلى الجنّة. ولهذا أطلقوا على ما رأوه يومئذ اسم (مهرجان الفردوس). ولأعوام طويلة بعد ذلك ظلّ الناس يتحدّثون عن هذا المهرجان الخارق وعن العبقريّ الذي ابتكره وأشرف على تنفيذه.

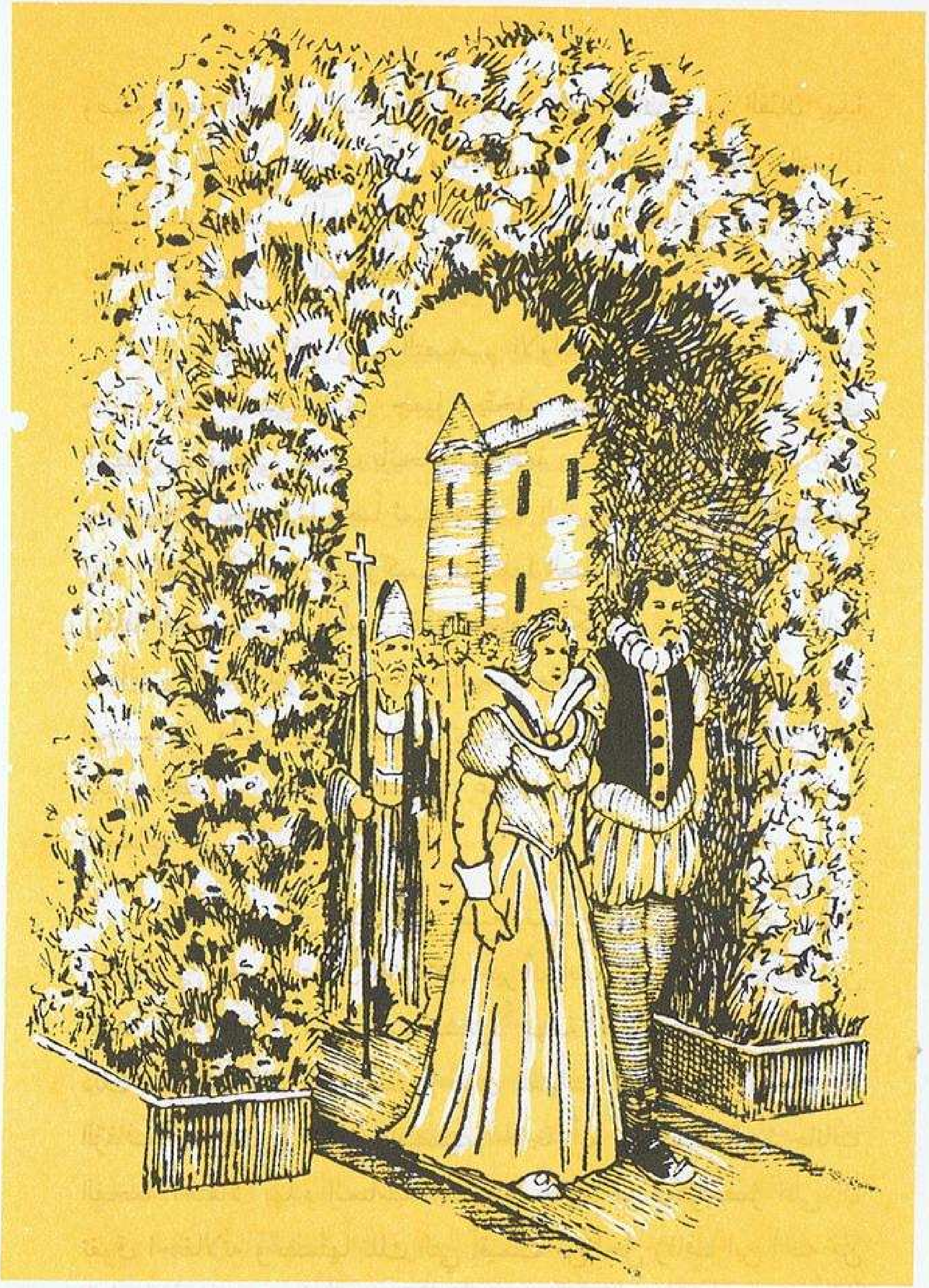
يومئذٍ وجد ليوناردو نفسه على أرفع قمة من قمم المجد والشهرة. ها هو محاطٌ بهالاتِ الإعجاب والتقدير الفائق من قِبل الناس جميعاً: ومن بينهم لودفيكو المغربيّ على الأخص. فقد بدا وكأن هذا الرجل الداهية ندم على ما سبق من سوء معاملته للفنّان العظيم واتهامه إياه بالجنون. هاهو يشدّ على يديه بحرارة، ويعانقه، ويلحُّ عليه في أن يعود إلى القصر واعدًا إياه بأن يكون خير راعٍ لأعماله وعبقريّته النّادرة.

لا شكّ أن هذا السّلوك الجديد الذي ظَهر من لودفيكو، يومئذ، إنما كان بدافع الرغبة في احتكار أمجاد ليوناردو من جهة، والحرص على بقاء لودفيكو محطَّ الأنظار من الجهة الأخرى. وذلك تمهيدًا للشّروع في عملية الاستيلاء على الحكم وتجريد «جيان» من حقّه الشرعي فيه.

غير أن ليوناردو لم يكن يهتم بهذه الدوافع والشؤون السياسية. إنه يريد أن يظفر بالأوضاع التي تتيح له الانصراف التام إلى أعماله الفنية والعلمية. لهذا رأى أن لا يدع الفرصة النادرة تفلت من يديه هذه المرّة. فأغلق معهده وانتقل إلى القصر القديم الذي كان قد استضافه خلال الأيام الأولى من وجوده في ميلانو.

التمثال والحصان العجيب

كان أوّل عمل كلّفه به لودفيكو، صُنْعَ تمثال لوالده، على نحو ما



الدوق جيان وعروسه بنت ملك نابولي

وصفه له في القائمة القديمة منذ عشر سنوات. فكان سرور الفنّان بهذا المشروع الجليل عظيمًا جدًّا. وكان المفروض أن يبلغ ارتفاع التمثال ثمانية أمتار. وعلى ذلك، كان إنجاز هذا العمل العملاق يُعتبر معجزةً فنيّة تذكّر بمعجزات العجائب السبع المعروفة.

شرع ليوناردو في رسم التصاميم الأولية على الورق. لكنه وجد حاجةً إلى حصانٍ قويّ جميل يتّخذه نموذجاً لحصانه البرونزي المطلوب، فمضى يطوف بأنحاء المقاطعة بحثاً عن ذلك الحصان. وقد وجد خلال بحثه هذا فرصاً ثمينة لدراسة الخيول وأنواعها، والتعمق في فهم الحقائق الكثيرة عن تركيب هياكلها العظيمة، وعضلاتها، عروقها وكافّة أعضائها من الرأس حتى الحوافر. فكان يرسم الأحصِنة التي تستلفت نظره ويدوّن إلى جانب الرسوم ملاحظاته عن مِيزاتها وعيوبها الجسمانية. ولم يجد الحصانَ الذي يطلبه، لكنه وجد نفسه قادراً على إبداع الحصان المتكامل الشروط عن طريق الجمع ما بين المِيزات الجماليّة التي كان قد دوّنها.

ثم إنّه عمد، من بعدُ، إلى صنع نموذج متوسط الحجم تمهيداً للشروع في نحت التمثال العملاق. غير أنه اضطُرَّ فجأة إلى التوقّف عن متابعة عمله هذا، إذ وجد نفسه مشغولاً بمهمة أخرى كلّفه بها لودفيكو. ذلك أن هذا كان قد خطب إحدى الفتيات النبيلات، وكان موعد الزّفاف قد حانَ يومذاك. فاقتضت الحاجة أن تتمَّ تهيئة المهرجانات الفخمة احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة. وكان لودفيكو يصرُّ على أن تفوق احتفالاتُه وعظمتُها تلك التي أقيمت من أجل زفاف ابن اخته من قبل. فهل هناك لمثل هذه المهمّة غير ليوناردو!

عبقرية من جديد: مدينة تحت السلاح!

ومضى ليوناردو يبتكر ويصمّم الأشكال والمشاهد. وقد رأى من الأنسب يومئذٍ أن يسود المهرجاناتِ طابعٌ عسكريّ بارز. وذلك انسجاماً مع ما كان يسعى إليه لودفيكو من وراء هذا الاحتفال، وهو المبالغة في إظهار القوّة والسّلطان، ليُخيفَ بهذه المظاهرة أنصار ابن أخته. ومن ثمّ فقد امتلأت شوارع ميلانو وضواحيها في تلك الأيام بمواكب الفرسان. هاهم تلمع أسلحتهم البرّاقة فوق جيادهم المطهّمة التي ابتكر لها ليوناردو أرديَةً موشّاة بزخارف التطريز.. وها هي شُرُفات ميلانو وسطوح منازلها مزدانة بالأعلام والشارات الحربيّة. انظر ماذا ترى.. إنها السيوف والتروس والدروع والرماح ومختلف الأسلحة الأخرى. بذا تيقّن الناس أن لودفيكو ما زال هو الحاكمَ الفعليّ للمدينة، أما ابن أخته «جيان» فليس أكثر من رجل ضعيف يعيش إلى جانب زوجته في قصره الكئيب الموحش.

تسلية العروس

انتهت أيام المهرجانات وحَسِب ليوناردو أن الوقت قد حان للعودة إلى عمله في التمثال. لكن مهمّة جديدةً ومزعجة فاجأته آنذاك. فقد كانت عروس لودفيكو نبيلةً صغيرة السن، لم تتجاوز عامها الخامس عشر. وقد وجدت نفسها عُرضةً للسأم والضجَر في القصر الجديد الذي انتقلت إليه، فكان لا بدّ من توفير أسباب الراحة والتسلية لها في هذه الحال. فهل هناك غير ليوناردو لمثل هذه المهمّة! وهكذا وجد الفنّانُ نفسه ملحَقًا بحاشية العروس النبيلة، على الرغم منه. إنه يُنظّم لها

الحفلات الساهرة، ويكتب لها التمثيليّات الهزليّة، ويعزف لها على القيثارة حيناً ويغنّي لها بصوته حيناً آخر. وفوق هذا كلّه فهو يُتعب نفسه في البحث عن الحكايات القديمة، فيعيد كتابتها بأسلوبٍ جديد ويحفظها عن ظهر قلب، كي يسلّي بها العروس وضيوفها من النبلاء وزوجاتهم. فهل ترضى بذلك نفسُ ليوناردو!!

من السّهل أن نتصوّر إلى أي حدٍّ كانت هذه المهمّة مزعجةً بالنسبة إلى رجل عبقري مهووس بالعلم والفنّ والاختراع. لقد كان يثقل عليه الجلوسُ، ساعاتٍ طويلة كل يوم، مع أولئك الضيوف النبلاء الفارغين. ولكن ماذا يفعل؟ إن عليه أن يُراعي العلاقاتِ الوديّة الجديدة التي بدأت تربطه بسيّد القصر. ولهذا كان يسيطر على ضِيقه وانزعاجه الشديد فيتظاهر بالبشاشة والمَرح.

عودة إلى التمثال

على أنّه لم يلبث طويلاً حتى سنحت له فرصة التحرّر من وظيفة النديم. ذلك أن لودفيكو كان فد وُفّق إلى عقد صفقة سياسية بارعة تتلخّص في تزويج ابنة أُخته من أميرٍ ألماني كان لودفيكو يودُّ أن يجعل منه حليفاً له في مطامحه السياسية. وكان الزواج وشيكاً.. فرأى لودفيكو ضرورةَ الإسراع في إنجاز التمثال البرونزي العملاق، حتى يُرفع عنه الستار ليلةَ الزّفاف.

وهكذا عاد ليوناردو إلى تمثاله بفرح وحماسة. فلم تمضِ بضعةُ شهور حتى فرغ من صياغة التمثال بمادة الصلصال، وشرع يصنع القالَبَ الحديديّ الذي يُصَبُّ فيه البرونز. إلّا أن الوقت لم يسمح بمثل هذا

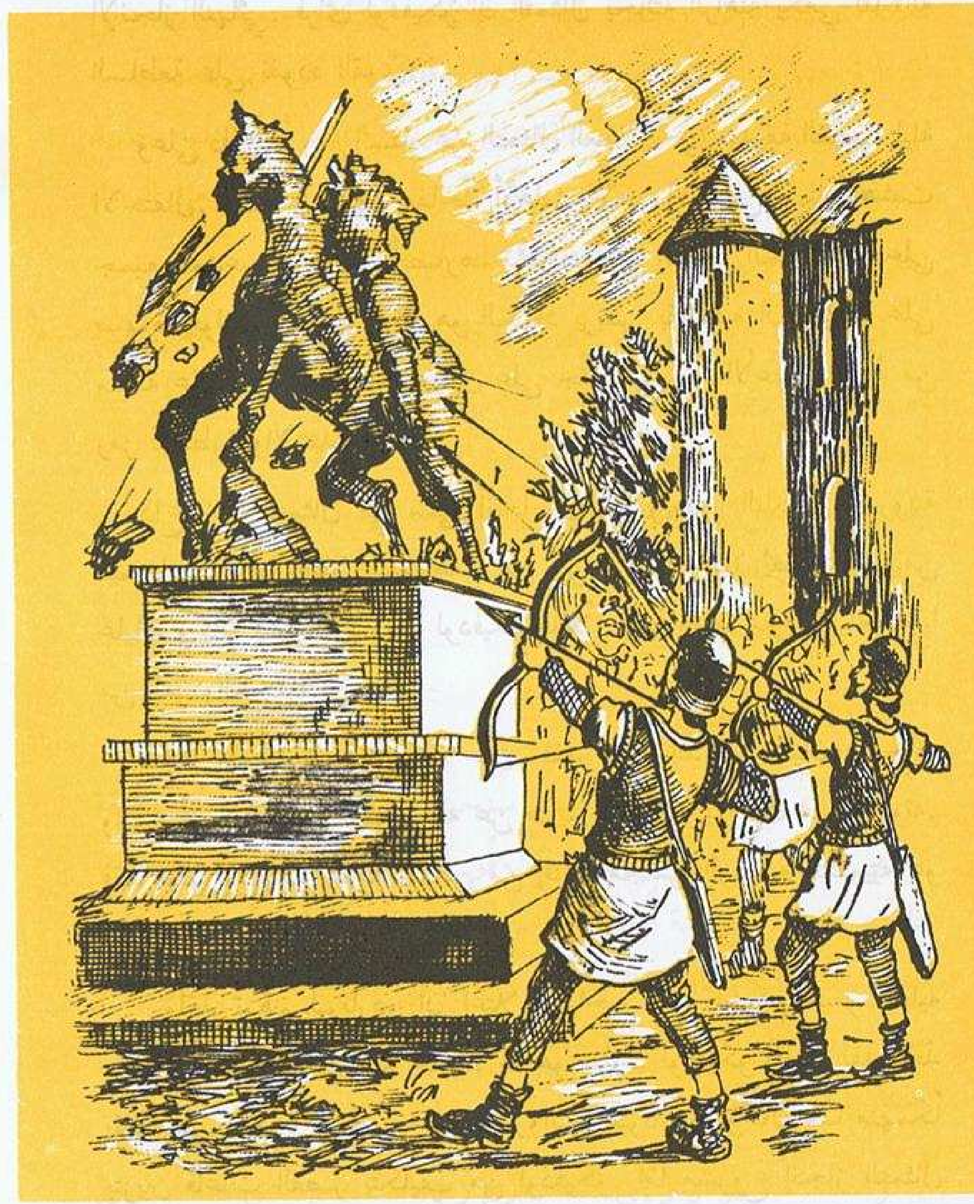
الإنجاز النهائي. فرأى لودفيكو أن التمثال بحالته الراهنة يكفي للدلالة الساطعة على نفوذه القويّ.

وعلى ذلك تمَّ رفعُ الستار عن التمثال العملاق في حديقة القصر، ليلة الاحتفال. فكان المشهد مفاجأةً أذهلت الأمير الألماني كما أدهشت جميع المدعوين. ها هي أبصارهم تَشْخَص إلى الفارس المارد وهو على صهوة جواده الضخم. وها هو الجواد يربض بقائمتيه الخلفيّتَين على منصّة عالية، وبقائمتيه الأماميّتين على جثّة قتيلٍ من الأعداء. يا لَهُ من رمزٍ للسطوة والاعتداد!

ذاع خبر التمثال في شتّى أنحاء إيطاليا وبعض البلدان الأوروبية المجاورة، فأقبل الناسُ لمشاهدته من كل طرف. وكان يُطِلُّ عليهم من عَليائه وكأنه يشير إلى ولده لودفيكو قائلاً: «انظروا ما سوف يبلغه هذا من العزّ والمجد».

وهذا ما حدث فعلاً بعد حين. فقد مات الدوق «جيان»، فجأة، وشاع أن خاله قد تخلّص منه عن طريق السمّ. وأياً كان سببُ موته، فقد ظفر لودفيكو بمأربه وتمكّن من إقناع مجلس الوصاية بِتَسْمِيَتِه هو حاكمًا شرعيًا.

ولقد توهّم ليوناردو أن اعتلاء صاحبه سدّة الحكم سيعود عليه بالجاه والثروة. لكن ظنّه خاب. ها هو سلوك لودفيكو يتغيّر. لقد أخذ يقصّر في دفع ما يتوجّب عليه من رواتب لليوناردو. وكان هذا منهمكاً بتزيين قاعات القصر بتكليفٍ من لودفيكو. أمّا مشروع إنجاز التمثال فقد انطوى يومئذٍ نهائيًا. لقد أظهر لودفيكو حاجته الملحّة إلى الحديد لصنع السلاح دفاعاً عن ميلانو، أمام الجيوش الفرنسية.



انهيار التمثال

لكنَّ ليوناردو لم يكن يهمُّه آنذاك غير أعماله وما تتطلّبه من لوازم ومواد ضرورية. ولا يمكن الحصول على ذلك بغير المال. والمال غير موجود في يديه. وسيِّد القصر يبخل عليه به.. إذنْ فإن عليه أن يُضرِب عن العمل أو ينزح عن القصر. فغاب مدةً حتى عاد لودفيكو يطلبه إليه من جديد ويسترضيه بعمل لوحة حائطية كبرى لحساب أحد الأديرة. وكان موضوعها (العشاء السرّي).

العشاء السرّي

رضي ليوناردو بهذا العمل الجديد.. فقد أعجبه الموضوع، لأنه يُفسح أمامه مجالاً لإظهار عبقريته في رسم الوجوه والتعبير عن شتى المشاعر النفسيّة التي ترتسم على ملامحها. إن عليه أن يصوِّر الانفعالات المختلفة التي ارتسمت فجأةً على وجوه تلاميذ المسيح بما فيهم يهوذا الخائن، حين أخبرهم المسيحُ بأن واحدًا منهم سَيُسلمه إلى أعدائه اليهود في تلك الليلة.

كان الموضوع غايةً في صعوبة الأداء، ولهذا تحمّس ليوناردو للقيام بالمهمّة الكبيرة. لقد مضى فوراً إلى الدير وشرع في العمل بعد أن قبض سُلفَةً من الرهبان. لكنه لم يمضِ عليه بعضُ الوقت حتى أخذ يتغيَّب عن الدير لفترات طويلة. فبعد أن أتمَّ تصوير أشخاص الرسُل ووجوههم، بقيت اللوحةُ شهوراً وهي خالية من الشخصين الأساسيَّين: المسيح ويهوذا. فضجَّ الرهبان لهذا البطء في العمل وذهبوا إلى لودفيكو يشكون إليه رسَّامه الخاص.

والحقّ أن تباطؤ ليوناردو لم يكن بسبب من تكاسُل أو إهمال. بل

كان منهمكاً في البحث عن وجهٍ يحمل ملامحَ الغدر والخيانة كي يجعله نموذجًا لوجه يهوذا في اللوحة. كذلك كان يُجهد نفسه أعظم الجهد في تصوُّر ملامح الطِّيبة والتسامح والحزن الوديع النبيل ليصوِّر بها وجه المسيح. وكان هذا العمل الفنّي العظيم يستنفد كل طاقات ليوناردو، لشدّة ما استغرق فيه. وقد بلغ من عمق التجرِبة الفنيَّة التي مرَّ بها ليوناردو في تلك الفترة، أنها أوحت إليه بالكثير من الأفكار والتعاليم الفنيّة التي دوّنها في مخطوطة كتابٍ كامل سمّاه «رسالة في التصوير».

وأخيراً، وبعد أن نَفَدَ صبر رهبان الدير، أنجز ليوناردو لوحته العظيمة التي ظلَّ طلَّابُ الفن، لفترة طويلة من الزمان يَحُجُّون إليها، ويقفون أمامها بخشوع ويأخذون منها أسرار المهارة والإبداع.

انهيار التمثال

تعاقبت الأيام بعد ذلك، وزحفت الجيوش الفرنسية على ميلانو فاحتلّتها، وهرب حاكمها لودفيكو بعد أن رأى آماله وأحلامه تنهار أمامه كأنها لم تكن.

أما ليوناردو فلم يُحزنه من ذلك غير المصير الذي آل إليه تمثاله الرائع العملاق. فقد وجد فيه الجنود الفرنسيون هدفاً لسهامهم. فما زالوا يرمونه بها، وهم يتضاحكون، حتى نَخَروا الصلصال من كل جانب، فخرَّ التمثال ركامًا من الحطام.

يومئذ حزن ليوناردو حزناً شديداً وحَقَدَ على أولئك المتوحّشين الذين لا يحترمون قِيَم الفن والجمال. وعَبَثاً حاول الأمير الفرنسي الذي

أصبح حاكماً على ميلانو، أن يعتذر إلى الفنّان العبقريّ عن جريمة جنوده، فما كان هذا ليمسح الحزنَ من قلب ليوناردو. وعندما أبلغه الحاكم، في مقابلةٍ ثانية، رغبة ملك فرنسا في أن يراه في قصره في باريس ـ حيث تتوفر له جميع أسباب الرعاية والتقدير ـ واعتذر ليوناردو بعبارات مهذَّبة ورفض.

الجنرال ليوناردو!

لم يجد ليوناردو بدًّا من النزوح عن ميلانو، فمضى يطوف بشتّى العواصم الإيطالية المجاورة. وقد ذهب أوّلاً إلى (مونتوا) حيث كانت قد دعته إلى زيارتها زوجة الحاكم، وشقيقة الزوجة السابقة للودفيكو. وكانت إيزابيلا هذه وزوجها من أشدّ النّاس ولعاً بالفنون الجميلة وتقديراً للفنّانين المبدعين. وكان من أغلى أمانيّها أن يزورها ليوناردو وتظفر بصورة لها من صنع أنامله الملهَمة. فلمّا قصد إليها آخر الأمر استقبلته ببالغ الحفاوة والترحيب. غير أن ليوناردو آنذاك لم يكن يشعر بأي ميلٍ إلى التصوير. ومع ذلك استطاعت إيزابيلا أن تستدرجه إلى بعض ما تريد. ولربما أنه خجلَ من عظيم إكرامها له وتملّقها إليه. فرسم لها على الورق صورةً من دون تلوين. ثم رحل عن (مونتوا) هرباً من إلحاح مضيفته ومضايقاتها. فقصد فينيسيا (البندقية). وهي مدينة رائعة الجمال، يحسب المرءُ قصورها عائمةً على صفحة البحر. وهي مبنيّةٌ على مجموعة من الجزر الصغيرة المتقاربة، شوارعها قنواتٌ مائية، ويتنقّل أهلها في زوارق جميلة الصنع يسمُّون واحدها «غندول».

أُعجب ليوناردو بالمدينة أيّما إعجاب. وكانت شهرته قد سبقته إليها، فاستقبله أهلُها بمنتهى التقدير. وبخاصّة أن الجيوش العثمانية كانت قد تقدّمت آنذاك في أراضي البلقان حتى باتت تهدّد مدينتهم

الجميلة. وكانوا يعرفون براعة ضيفهم الكبير في وضع خطط الدفاع الحربية واختراع الأسلحة الفعّالة في مثل هذه الحال. وقد طلبوا منه المباشرة فورًا في وضْع خطةٍ للدفاع عن المدينة. فلم يتردّد في قبول المهمّة. أليس هناك من يعترف سلفاً بعبقريته في المجال العسكري!

خطة الدفاع

كان الأتراكُ قد اخترقوا الأراضي الإيطالية من أقصى الشمال ثم اتجهوا جنوباً لمهاجمة مدينة البندقيّة من جهة البر. إلّا أنّه كان عليهم قبل ذلك، أن يجتازوا نهراً عريضاً، اسمه نهر (إيزنزو). وعلى هذا النهر كان يرى ليوناردو أن تتركّز جبهةُ الدفاع. كما يرى أن عددًا يسيراً من المقاتِلين يستطيعون أن يصدّوا أيّ قوّة معادية تحاول عبوره.

وباشر ليوناردو في تصميم مشروعٍ دفاعيّ على خط المؤخّرة. وكان يريد بناء أنفاقٍ داخل القنوات المائيّة التي تصل أحياء المدينة بعضها ببعض. وقد ابتكر لهذا الغرض ثوباً خاصًا بعمليّات الغطس، جعله من مادَّة لا يخترقها الماء، وجهَّزه بنظّارة واسعة تُمكِّن الغطَّاس من رؤية ما حوله. ثم ألحقَ بالثّوب أنابيب طويلة تنقل الهواء من فوق سطح الماء، وكُمَّيْن لهما قفّازان على شكل أقدام البط، ويساعدان كثيراً على السّباحة والعوم.

لقد شعر ليوناردو يومئذٍ وكأنه يواجه حربًا حقيقية تلقي على عاتقه مسؤولياتٍ رئيسيَّةً ضخمة. فلم يكفَّ لحظة واحدة عن التفكير في اختراع الأجهزة العسكرية وأنواع السلاح طلباً لنصر أكيد. ومن جملة ما أشار إليه في مذكراته المخطوطة، سلاحٌ سريٌّ مخيف لم يكشف عن تفاصيله، وزعم أنه يُبيد المئاتِ من الجنود دفعةً واحدة.

كذلك أشار إلى سفينة عجيبة مصفَّحة بالحديد، تجري تحت سطح الماء وتستطيع الاقتراب خفيةً من أيَّة سفينة حربية أخرى دون أن تشعر السفينةُ بوجودها، فتدمرها بصورة كليّة.

على أنَّ شيئاً من هذه المخترعات الرّهيبة لم يوضَع يومئذ موضع التنفيذ، بالنظر إلى تكاليفه الباهظة. كما أنَّ العثمانيّين غيّروا خطّتهم واتّجهوا بزحفهم وجهة أخرى. ومن ثمة غادر ليوناردو المدينة، إذ لم يبقَ من ضرورة إلى بقائه فيها.

وفي عام ١٥٠٢، التقى ليوناردو ذلك الرجلَ المخيف المعروف في التاريخ باسم سيزار بورجيا.

ولقد عجب المؤرّخون كيف أمكن لمثل ليوناردو أن يضع نفسه في خدمة رجلٍ مجرم ميّت الضمير، مثل سيزار بورجيا. إنه ما كان يهاب جريمة أبداً إلّا اقترفها، وبخاصة إذا كانت تُضيف إلى ثروته الفاحشة حفنةً من الذهب. وكان له مستشارٌ اسمُه مكيافيلي، أبرزُ طباعه عدمُ المبالاة بكل ما تعارَفَ عليه الناس من مفاهيم العدل والشرف. لقد ضُرب به المثل في هذا المجال، وما زال اسمه مرادفاً لمعنى الغدر والتلوُّن ونكْثِ العهود. فهو صاحب القول المشهور: «الغاية تبرِّر الوسيلة».

وهكذا يتَّضح بجلاءٍ أن ليوناردو لم يكن في مكانه الحقيقيّ بين هذين الرّجلين الرّهيبَين. ولكن يبدو أن سيزار بورجيا استطاع أن يجتذبه إليه بما كان يصطنع له من حلاوة اللسان والبشاشة. كما عرف كيف يستغلُّ شَغَفَ ليوناردو الشديد في أن يعتبره أهلُ عصره، مهندساً

ومخترعاً. ومن هنا استطاع سيزار بورجيا أن يَنْفَذَ إليه ويجتذبه، إذ بادر فوراً إلى تسميته مهندسه الحربيّ والمعماريّ الخاص. ثم خلع عليه رتبةً عسكرية وصار يدعوه: الجنرال ليوناردو الكبير. وكان فرح ليوناردو بهذا اللقب عظيماً فائق الحد.. أما أضفى عليه مهابةً رسمية بين الناس؟ لقد أصبح من حقه بفضل ذلك اللقب أن يتنقَّل في أنحاء المقاطعة التي يحكمها سيزار بورجيا دونَ أن يدفع أجراً لقاء ذلك.

كما أصبح من حقِّه أن يحصل على كلّ ما تحتاج إليه أعماله ومشاريعه الحربيّة والعمرانية كذلك.

لكن، وأسفاه! إن ليوناردو لم ينعم طويلاً بهذا اللقب، لأن سيزار بورجيا الذي ملأ عهدَه الأسود بالجرائم والفجور، كان عليه أن يواجه الموت بالطريقة نفسها: لقد اغتاله نفرٌ من أعدائه.

أمّا ليوناردو فلم يجد بعد ذلك إلّا العودة إلى عاصمة وطنه فلورنسا. وهاهو يعود عام ١٥٠٣. إنه في الخمسين من عمره، قد زالت من وجهه ملامحُ وسامته القديمة ونضارة الشباب، وسقط شعر رأسه، وتسلَّل الشيّب بغزارة إلى لحيته. ومع ذلك، فقد ظلَّ متين البنية قويَّ اليدين في تلك السن. إذ روى معاصروه، أنه كان يلوي قضيباً غليظاً من الحديد، دون جهدٍ كبير. وعلى كلٍّ، لقد تغيَّر شكله كثيراً عن ذي قبل: قلَّت عنايته بملبسه، وبدا من مظهره العام، وكأنه أكبر سنّاً من حقيقته.

لكنّه لم يتغيَّر وحده. لقد شاركته في ذلك فلورنسا نفسُها: زال عنها حكم آل المدتشي، وأصبحت جمهوريةً يحكمها مجلس ينتخبُه وجُهاؤها وتجارها الأغنياء. وكانت يوم عودته في حالة حرب مع جارتها

(بيزا). فهل أن الحرب هي التي اجتذبت ليوناردو يومئذ إلى مدينته؟ هل بدا له أن مخترعاته الحربيّة سوف تجد مجالاً لتنفيذها واستخدامها هناك! قد يكون ذلك. وقد يكون أهلُها هم الذين بادروا إلى استدعائه بعد أن بلغتهم أخبار مقدرته الفائقة في شؤون الحرب واختراع الأسلحة.

الامتحان العسير

وصل ليوناردو فلورنسا فانهمك في أعمال التحضير لما تتطلّبه الحرب من خطط. وسرعان ما قرّر أن يكون نهر (أرنو) الذي يخترق المدينة ثمّ يتّجه غرباً حتى يبلغ مدينة بيزا، هو محورَ الخطة التي تضمن النصر لفلورنسا. إذن، فإنه يجب تحويل مجرى النهر وقطْع الماء عن المدينة العدوّة. وعرض ليوناردو هذه الفكرة على أعضاء مجلس الحكم، فوافقوا على تنفيذها بالإجماع.

وبدأ العمل بإشراف ليوناردو، ذلك المهندس المخترع، فمضى يبذُل كلَّ همَّتِه في إنجاز المشروع. وقد لاحظ خلال الأيّام الأولى أن أعمال الحفر لا تجري بالسّرعة المطلوبة، وأقلقه ذلك، فأخذ يفكّر في اختراع آلةٍ ميكانيكيَّة تختصر الجهد والوقت. ولم يلبث أن وضع التصاميم. وحين تمّ صُنع الآلة المطلوبة، جاءت شبيهةً إلى حدٍّ كبير بالآلة الحديثة المعروفة في أيامنا بـ (الونش). وبفضلها أخذ العمل ينشَط كثيراً. فما إن مضت شهور قليلة حتى كان المجرى الجديد قد تشكّل عرضاً وعمقاً، ومضى يمتدّ في السهل حتى بلغ ألوف الأمتار. على أن العمل توقّف فجأةً ذات يوم، وبصورةٍ نهائية، إذ أُعلن السلام بين المدينتَين المتحاربتين بعد زوال الأزمة التي كانت سبباً في إشعال نار الحرب بينهما.

ولا شك أنَّ ليوناردو تكدَّر كثيراً في ذلك اليوم. أليس هذا ضياعاً لجهوده! أليس يعني بقاءَ مشروعاته دون تنفيذ!

لذا أخذ ليوناردو يفكِّر في تحويل المجرى الذي لم يتمّ، إلى قناة مائية تمرُّ ببعض المدن والقرى التابعة لجمهورية فلورنسا، بحيث تصبح عاملاً هامًّا في تنشيط الزّراعة وبعض الصّناعات. كما فكَّر في أن يعود مجرى القناة، بعد ذلك فيتّصل بمجرى النَّهر القديم قبل أن يدخل إلى مدينة بيزا. وبذلك تتحصَّل الفائدة لفلورنسا من دون أن يتضرَّر خصمها الذي جَنَحَ إلى السلام، أيّ مدينة بيزا.

لكنَّ هذا المشروع الضّخم كان من طبعه أن يلتهم أموالاً تفوق طاقة الخزينة العامة. فلم توافق عليه الهيئةُ الحاكمة في فلورنسا، بالرّغم من اقتناعهم بفوائده الكثيرة.

الطوفان

وأقبلَ الشتاء.. ورافقته أمطار غزيرة لم تَشْهَد المقاطعةُ لها مثيلاً من قبل. لقد طغى النهر عبر المجرى الجديد المحفور ثم تحوّل طوفانه إلى كارثة مدمِّرة.. مساكين أولئك الفلاحون! لقد أهلك الطوفانُ العشراتِ منهم، كما دمَّر المئات من المساكن والزّروع. ومع أن الحادثَ كان من فعل الطبيعة، فقد وجد ليوناردو الألسنةَ الحاقدة تلقي عليه أشدَّ اللوم.. وكأنّه هو المسؤول عن كل ما جرى. فانتابته أزمة نفسانية موجِعةٌ ورأى أن يغادر فلورنسا إلى أن تزول آثار الكارثة من النّفوس.

وهكذا ذهب ليوناردو إلى مسقط رأسه «فنشي». وجعل يقضي أيّامه متجوّلاً في ضواحيها الجميلة، حيث كانت تنتظره ذكرياتٌ عزيزة غالية

من أيام طفولته. لقد عاد يتذكَّر الأسئلة القديمة التي ازدحمت في عقْله الصغير يومذاك: عن هيكل السمكة المتحجِّرة، والجنادب، والزهور، وألوان الفراشات، فالغمامات السارحة في الفضاء، والطيور المحلّقة التي أثارت فضوله بنحوٍ خاص.

الطيران

كانت مسألة الطيران في رأس المسائل التي أغْرَتْه بدراسة أسرارها الآن، فأخذ يحلم باختراع جهاز يتيح للإنسان أن يطير. ويبدو أنَّ هذا الحلم قد استبدَّ بعقله إلى درجة كبيرة. ها هو يذهب إلى السوق ويشتري من باعة الطيور أصنافاً منها داخل أقفاصها. وما إن يتسلَّم الطّيور حتى يُطْلقها من الأقفاص ويمضي في مراقبة طيرانها بكلِّ دقة. وكان هذا يثير عَجَبَ الناس ودهشتهم فظنُّوا أن في الرجل شيئاً من البلاهة أو الجنون. لكنّه يمضي في تجاربه المثيرة. وها هو يصطاد الخفافيش وأنواع الحشرات الطائرة ويجتهد في دراسة أجنحتها وعضلاتها وتصرُّفاتِها أثناء مرورها في التيارات الهوائية، حتى تحصَّلت له مجموعةٌ من المبادىء الخاصة بطيران الطيور. فشجَّعه ذلك على محاولة اختراع جهازٍ يتيح للإنسان أن يطير.

والواقع أن أولى محاولاته في هذا المجال، بدأت عندما كان في ميلانو، عند لودفيكو المورو. هناك كان يصعد إلى سطح القصر بعيداً عن أنظار النّاس ويجرّب. ويبدو أنه فشل يومئذ في محاولاته. هكذا يبدو من الملاحظات التي كتبها في مذكراته الخاصة. ولهذا مضى يفكّر في المشكلة من جديد. واهتدى إلى أحد الأسرار المهمّة التي

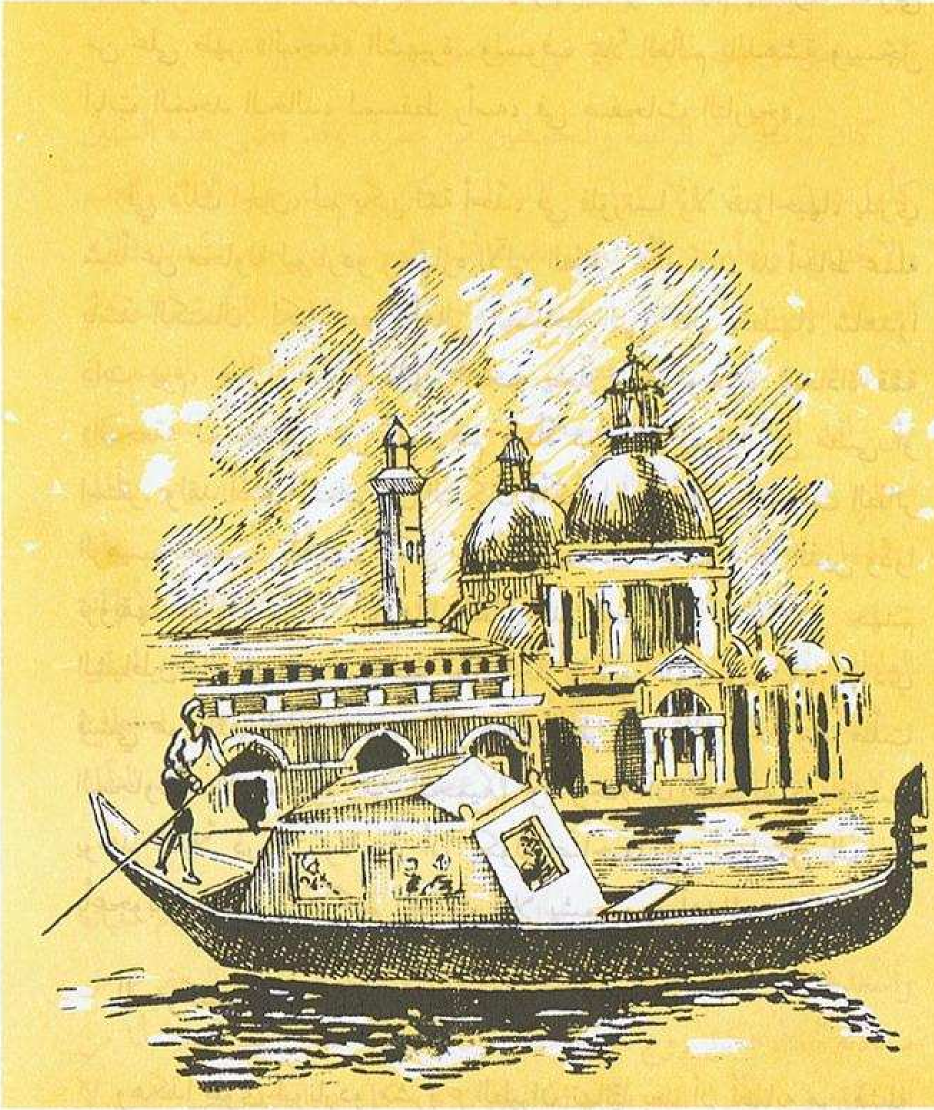
تحفظ من أذى التحطّم عند السقوط. لقد اكتشف أن الإنسان يستطيع الهبوط سالماً من أعلى الجوّ إلى الأرض، إذا كان معلّقاً بقطعة عريضة من القماش مشدودةٍ إلى أسلاكٍ تمنعها من الانطواء بعضاً على بعض. وهذا في حقيقته هو الباراشوت.

لكن ليوناردو لم يستطع أن يستمرّ في تجاربه آنذاك. لقد كانت الظروف القلقة لا تسمح له بالتفرّغ التام لتحقيق حُلُمه في اختراع الجهاز. وبقي الحلم يستأثر بتفكيره إلى أن كانت زيارته لمسقط رأسه «فنشي»، إذ شعر يومئذٍ بأنّ الطيران يستبدّ بعقله من جديد. فاختصر زيارته وعاد مسرعاً إلى فلورنسا، حيث استأجر مسكناً منعزلاً هناك، وباشر تجاربه في اختراع الجهاز المطلوب. وقد وجد يومئذٍ أن طائر الخفّاش يمثّل النموذج الأصلي للجهاز الآليّ الذي يريده. وذلك بالنّظر إلى التفاوت النسبيّ بين صِغَر جسم هذا الطائر وكِبَر حجم جناحيه. فقد اعتبر ليوناردو أن هذا التفاوت حلٌّ صحيح لمشكلة احتمال الأجنحة لِثِقَلِ جِسم الإنسان أثناء طيرانه.

وهكذا، صنع ليوناردو جهازه الآلي الذي سمّاه «الطائر العظيم» من القماش المتين والجلد، واستخدم فيه نوعاً من الحبال الحريرية القويّة. ثم علّق به مركبةً مجوّفة تشبه الزّورق الصّغير، يجلس فيها الراكبُ طليقاً من أيّ رباطٍ يَشُدُّه إليها.. وذلك لضرورة التحرُّك بحريّة والتحكُّم بمركز جاذبيّة الأرض عند الاقتضاء.

من أرض العفاريت

ما إن فرغ ليوناردو من صنع (طائره العظيم). حتى قرّر القيام بتجربته بنفسه. ولْنقرأ الآن في مذكّراته عن الحادث. إنه يقول: «من قمة الجبل



غندول في مدينة البندقية

الذي يحمل اسم الطائر البديع (البجعة) سوف يقلع «الطائر العظيم» محلّقاً في الأجواء ويملأ الدنيا بشهرته العظيمة». وفي صفحةٍ أخرى من الدفتر نفسه، كتب يقول أيضاً: «سيقوم الطائر العظيم بمحاولته الأولى من على ظهر «البجعة» الشهيرة. ولسوف يملأ العالم بالدهشة ويسجّل آياتِ المجد الخالد، لمسقط رأسه، في صفحات التاريخ».

في ذلك الحين، لم يكن ثمّة أحدٌ، في فلورنسا ولا ضواحيها، يدري شيئاً عن محاولة ليوناردو وجهازه الآليّ الطائر. لأنّه كان قد أحاط عمله بأشدّ الكتمان. لكنّ بعض أهالي الضاحية التي كان يقطنها، شاهدوا ذات يوم، طائراً عجيباً هائل الحجم يحلّق فترة وجيزة بمحاذاة قمّة «البجعة» ثم يختفي عن أبصارهم فجأةً دون أن يعرفوا أين مضى أو استقر. ولقد أذاعوا الخبر بين السكّان وأكدوا لهم أنهم رأوا ذلك الطائر الرهيب العجيب بأعينهم. لكن أحداً لم يصدّق الحكاية. أما الذين ودُّوا تزويقها فقالوا: لا بدّ أن هذا الطائر قد هبط إلى أرضنا من جهنم الشياطين والعفاريت. لم يخطر ببال أحد بالطبع، أن يكون ليوناردو دي فنشي هو ذلك الطائر العفريت. وكيف يفطن إلى ذلك أحد وقد ظلّت المحاولة سرّاً مجهولاً من الجميع! والأرجح أن التجربة قد فشلت يومئذٍ فشلاً ذريعاً. ولا بدَّ أن يكون صاحبها قد نجا من الموت بأعجوبة، وفضّل أن يكتم الحادث لئلا يشمت به أعداؤه وحسّاده.

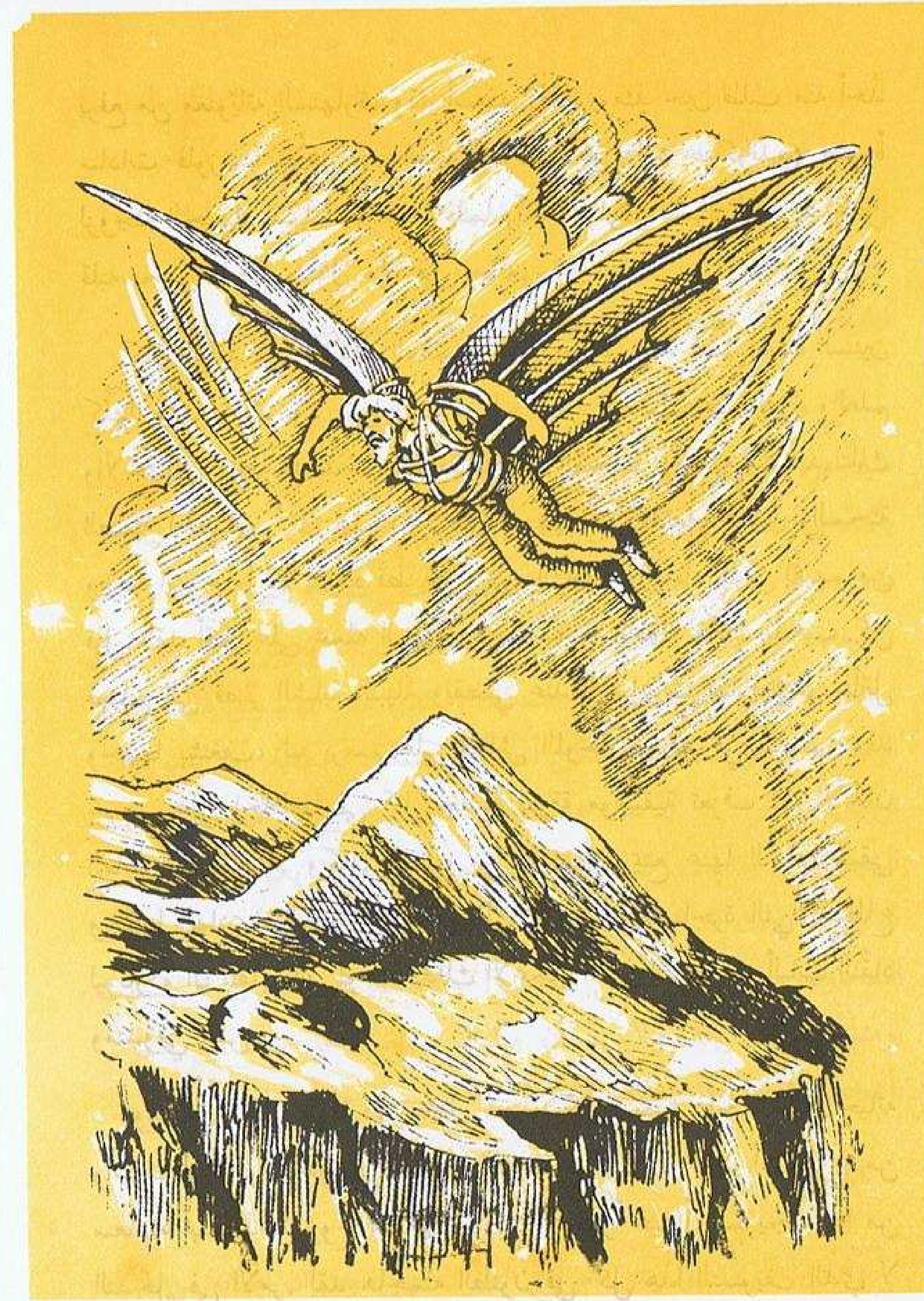
الجوكندا

وهكذا طوى ليوناردو مشروع الطيران نهائيًا بعد أن أصابه من فشله غمٌّ شديد. فلم يجد بدًّا من العودة إلى الرّسم وتصوير اللوحات، عَلّه

يرفع من معنويّاته المنهارَة. وقد أسعفه الحظ يومئذٍ حين طلب منه أحدُ سادات فلورنسا الأغنياء، واسمه (درنشسكو دال جوكوندو) صورةً لزوجته الجميلة الشابّة موناليزا. فلما رآها ليوناردو للمرّة الأولى، أحسَّ قلبه يخفق بالحبّ لأوّل مرّة في حياته.

كان يومئذٍ في الرابعة والخمسين من عمره. وقد قضى هذه السنين كلّها دون حبّ ولا زواج. لأنه لم يكن ليحبَّ غير الفنّ والعلم والاختراع. ولعلَّه قد عجب هو نفسه أشدَّ العجب من حبّه الشّديد لتلك الصبيّة الحسناء. تُرى هل وجد في وجهها من ملامح الطّيبة والمحبّة وبراءة الروح ما لم يجده قطُّ في وجوه الرّجال والنّساء الذين لقيهم من قبل. لقد أقبل على عمله الجديد بحماسة وسعادة!! فكان يذهب كل صباحٍ إلى قصر الشابة النبيلة ويقضي عندها ساعاتِ نهاره وهو يتأمّل وجهها بشغف، ثم يرسم على قماش اللوحة ويدقّق في الرسم. وقد حرص على إحاطتها في كل جلسة بفرقة موسيقية تعزف لها الألحان العاطفية الجميلة. وكان قصدُه من ذلك أن يمنع عنها السأم، ليبقى وجهُها الهادىء الجميل متألّقاً بتلك الابتسامة الساحرة التي استطاع ليوناردو أن ينقلها إلى لوحته بذلك الإعجاز الفنيّ الذي حيّر ألبابَ النقّاد ومتذوّقي الفن.

وهكذا.. بقي ليوناردو خلال شهور كثيرة يعيش أجمل أيّام حياته وأسعدها، وهو يماطل في إنجاز اللوحة، وكأنه لا يريد أن يفرغ من سعادته أبداً. لكنّ زوج موناليزا، وكان عجوزاً غيوراً، لم يجد بدًّا من التدخّل في الأمر. لقد هاجمتْه الظنون في كل هذا التسويف الذي لا مبرِّر له. ومن ثم أمر الفنّان بإتمام اللوحة خلال أيام قليلة. فحزن ليوناردو



الطائر العظيم

أشدَّ الحزن إذ رأى أيّام سعادته قد أوشكت على الانتهاء. لكنَّه فكَّر بحيلةٍ بارعة تمكّنه من الاحتفاظ باللوحة، على سبيل التّعزية عن فراقه الاضطراريّ لصاحبتها. فذهب إلى سيّد القصر في الموعد المضروب، وأخبره بأنه مضطرٌّ لأخْذِ اللوحة معه، كي يرسم عن الطبيعة منظراً جميلاً خلف صورة السيدة زوجته. ووافق الزوج على هذا الطلب.

وهكذا خرج ليوناردو من قصر الحبيبة لآخر مرَّة وهو حاملٌ صورتها العزيزة وفي نيّته أن لا يعيدها أبداً. وقد تمَّ له ما أراد. فبعد أن أتمَّ رسم المنظر الطبيعي المطلوب أخفى اللوحة في مسكنه، وجعل يماطل في تسليمها، ويدَّعي أنه لم ينته من رسم المنظر. ثم إنَّ الظروف لم تلبث أن أعطته العذر الشرعيَّ الذي يعتذر به عن تباطؤه في إنجاز اللوحة وتسليمها. ذلك أنَّ هيئة المجلس الجمهوري الحاكم في فلورنسا طلبت إليه القيام بعمل فنّيٍّ ضخم يستغرق إنجازه الشهور الكثيرة. وبهذا وجد ليوناردو وسيلةً جديدة للتسويف والمماطلة، خصوصاً وأنَّه لم يتناول عن عمله فيها أيّ أجر.

ليوناردو وميكال أنـجلو

كان العمل الذي طلبتْه حكومة فلورنسا هو تزيين سقف قاعة المجلس بلوحاتٍ ملوَّنة تمثّل وقائع معركة (إنجيارا). وكانت هذه المعركة قد جرت عام ١٤٤٠، أي قبل مولد ليوناردو باثنتَي عشرة سنة، وفيها هزم الفلورنسيون جيشَ ميلانو هزيمةً تامّة.

ويبدو أن الاختيار وقع يومئذٍ على ليوناردو وعلى فنّان فلورنسيٍّ شاب اسمه ميكال أنجلو.

كان ليوناردو يعرف مواطنه الشاب، وقد سبق له أن شاهد بعض أعماله وأهمّها ذلك التمثال العملاق المعروف باسم (داود). فأُعجب بنبوغ زميله ووجد فيه منافساً خطيراً يمكن أن يتخطّاه في مجال الإبداع لروائع النحت والتصوير. لذا كانت العلاقة بينهما على غير ما يُرام. وقد يعود السبب في ذلك إلى اختلاف الطبع والمزاج كما يعود إلى فارق السنّ. ليوناردو كان كهلاً ذا طبع وديع مسالم، يميل إلى الصّمت والسكون والعُزلة عن الناس. أما ميكال أنجلو فهو شاب، سريع الغضب، كان مُفعَماً بروح التمرّد، كما كان شديد الثقة بعبقريته.

ومما يُروى عن طبيعة العلاقة بين العبقريَّين، أن بعض أصدقاء ميكال أنجلو استوقفوا ليوناردو ذات يوم، في إحدى الساحات، وطلبوا إليه أن يكون حَكَماً بينَهم، في نقاشٍ لهم حول مسألةٍ تتعلّق بالشاعر الإيطالي المشهور (دانتي أليجياري). ولمّا كان ليوناردو لا يجهل سعة اطّلاع صاحبهم ميكال أنجلو على سيرة هذا الشاعر العظيم فقد أجابهم بكلّ بساطة وتواضع: «من الأفضل أن تسألوا ميكال أنجلو، لأنه الأدرى على كل حال بدانتي وبأشعاره».

فلم يكد ميكال أنجلو يسمع هذا الجواب، وكان جالساً بين الجماعة، حتى هبَّ واقفاً وقد احمرّت عيناه من الغضب، إذ حسِب أن غريمه الكهل يسخَر منه. ثم صاح به، بنبرة مملوءةٍ بالتهكّم والتحدّي:

«ولماذا لا تشرحها لهم أنت، نفسك، أيها النحّات الخطير الذي صنع نموذجاً لتمثال حصانٍ ولم يعرفْ كيف يصبّه بالبرونز!.. حقاً إن أهل ميلانو كانوا بُلَهاء... حين عهدوا بمثل هذا العمل إلى واحدٍ مثلك».

ولم يردّ ليوناردو بكلمة على هذه الإهانة، بل مضى في سبيله صامتاً. لقد أذهلتْه الصّدمة التي لم يكن ينتظرها.

من هنا كان شعوره بأنه قد بات في مواجهة امتحانٍ خطير، يوم تمّ اختياره هو وميكال أنجلو لتزيين قاعة المجلس. ولا شك أنّ ليوناردو كان يفضّل أن يقوم وحده بالمهمّة كلها. وهذا في الواقع ما تمّ الاتفاق عليه بادىءَ الأمر. لكن ميكال أنجلو عَلِمَ بأمر الصّفقة، فتقدّم إلى هيئة المجلس عارضاً عليها استعداده للقيام بتزيين جانبٍ من السقف. لماذا؟ كان غرضُه يومئذٍ هو التحدّي وإثارة غريمه الكهل. ولم تجد هيئة المجلس مانعاً من قبول عرض الفنّان الشاب. بل لقد رحّبت به، بالنّظر إلى ما كانت تعرفه عن ليوناردو من التباطؤ الشّديد في العمل.

العملاقان في العمل

بدأ العملاقان عملهما في صمتٍ مشحونٍ بحمى التّنافس. وسرعان ما تحوّل فناءُ القاعة الواسعة إلى مِحَجّة لأفواج الزائرين، يأتونها كل يوم ويراقبون في اهتمام بالغ ما يرسمه الفنّانان العبقريّان على الجانبين المتقابلين من السّقف، ثم ينقسمون فيما بينهم إلى: أنصار متحمّسين لليوناردو، وأنصار متحمّسين لمنافسه. وكان من عادة الفريقَين أن يثيروا المناقشاتِ الحادّة في كلِّ مكانٍ: في الشوارع والساحات والمنازل، حول أفضلية فنّان على الآخر وميزاته وأسلوبه. فأصبحت فلورانسا يومذاك ولا حديث لها إلّا عن ليوناردو وميكال، ولا همّ لها إلّا أن تتابع التطوّراتِ اليومية في عمل كلٍّ منهما.

كان المشهد الذي تصوّره ميكال أنجلو يمثّل طائفة من الجنود

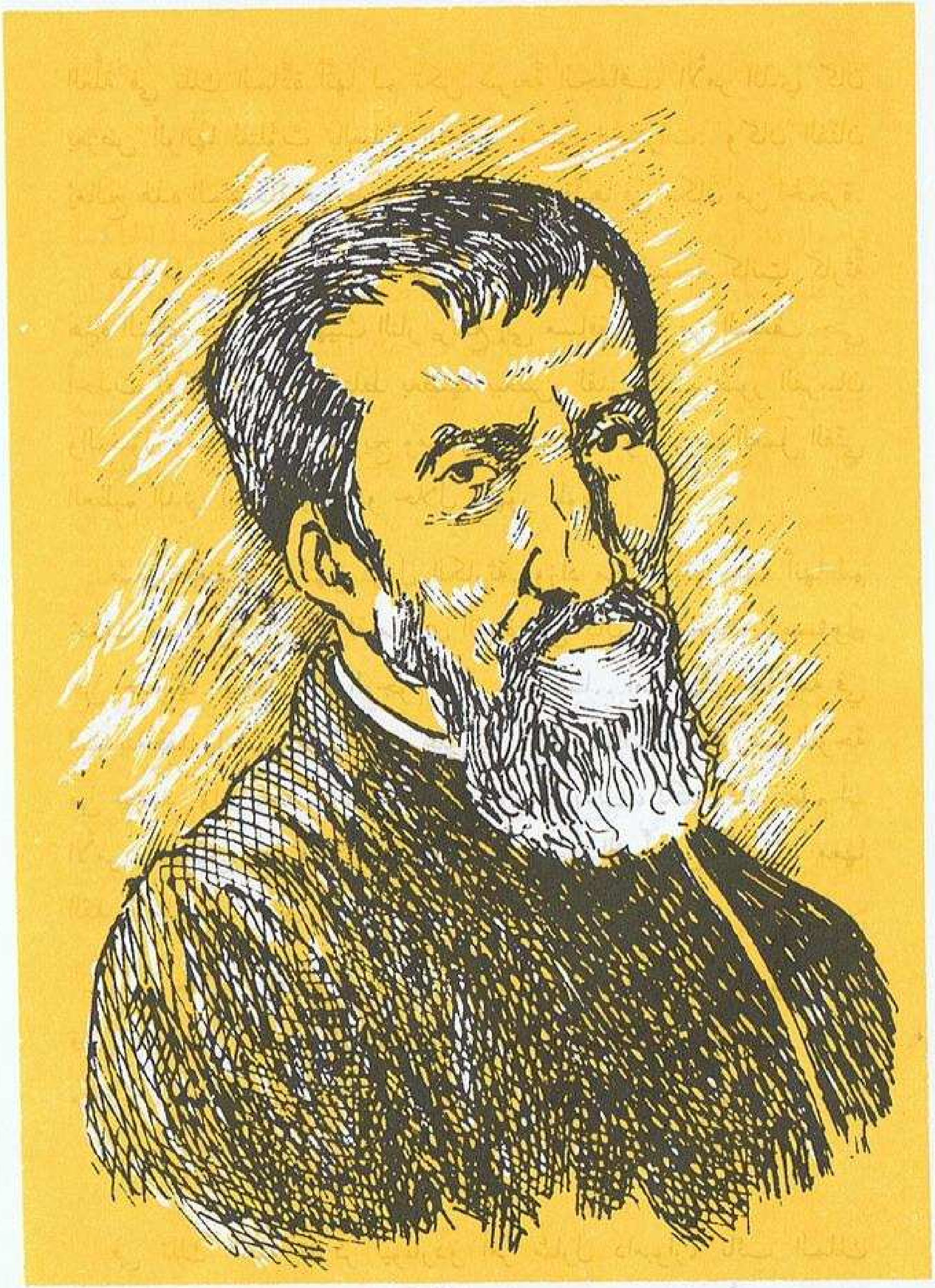
الغُراة يستحمُّون في أحد الأنهر. وقد توخَّى من هذا الاختيار أن يُظهر للناس مهارته الفائقةَ في تصوير عضلاتِ الجسم البشريِّ وما تختزن من طاقاتِ النشاط وتوحي به من دلالات القوَّة والبأس.

أمَّا ليوناردو فقد اختار مشهداً لمعركة ضارية يلتحم في ساحاتها فريقان من الفرسان في قتال عنيف. وقد أتاحت له خبرتُه بفنون الحرب وخططها أن يُبرز المشهد وكأنه واقعٌ حيٌّ لمعركةٍ حقيقيّة تدور في أعلى السّقف. حتى لقد كان يُخيَّل إلى الناظر أن الخيول تَثِبُ من جوف الجدار بحركةِ انقضاضٍ خاطفة... وما هي إلّا أن تقفز بالفرسان إلى أرض القاعة.

وعندما انتهى العمل بعد شهور، لم يستطع ميكال أنجلو أن يخفيَ إعجابه الشديد بإبداع غريمه الكهل. بل لقد شهد له بالأُستاذيّة وهو ينحني أمامه. وحتى ليوناردو، المعروف بعادة الاستهانة بأعماله الفنيّة، لم يستطع هذه المرّة أن يخفيَ سروره بلوحته البالغة الرّوعة. يومذاك أجمعَ أهل فلورنسا على أن ليوناردو دي ڤنشي قد تفوَّق على منافسه تفوُّقاً ظاهراً، فترنَّح الفنّان الكهل طرباً من فَرْطِ النّشوة بهذا الانتصار.

الكارثة

على أنَّ تلك الفَرْحة ما لبثت أن تبخَّرت من نفسه بعد أيام قليلة، وحلَّت مكانها خيبةٌ قاسية. وكان هذا على أثر حادثٍ مؤسف كان له وقع الكارثة في نفوس أهل فلورنسا جميعاً. وتفصيلُ الأمر أنه كان من عادة ليوناردو، أن يستخدم مادة صمغيّة خاصة: يحضِّرها بنفسه ثم يمزجها بالألوان، بقصد أن تُثَبِّت الصورة المرسومة على الجدار. لكنَّ



ميكال أنجلو

العلّة في تلك المادّة أنّها لم تكن سريعةَ الجفاف، الأمر الذي كان يعرّض ألوانها للتلوُّث بالغبار والذّباب وشتّى الحشرات. وكان الفنّان يُعالج هذه المشكلة عن طريق التدفئة بنارٍ يوقدُها في مكان من الحجرة.

هذا ما حاوله يومئذ في قاعة المجلس. لكنَّ النتيجة كانت كارثةً هذه المرّة. فلم يكَد لهيبُ النار يرتفع إلى مسافة قريبة من السقف حتى أخذت الألوانُ تميع ويختلط بعضها ببعض. لقد سالت صُور الفرسان والخيول وساحَت في تعاريج ومسارب متشابهة. وأفسدت العملَ الفنّي العظيم الذي أبدعه ليوناردو خلال شهور طويلة.

صُعق العبقريُّ الكهل لهول الكارثة. وزاد من وطأتها عليه أنها لم تحدث قضاءً وقدراً ككارثة مجرى القناة، بل كان هو وحده، المسؤولَ عن حدوثها. يومئذٍ ساد الوجوم أهالي فلورنسا.. أما الهيئةُ الحاكمة في المدينة فقد راحت تصبُّ اللوم على ليوناردو وتطالبه بإعادة رسم اللوحة من جديد. ولم يجد ليوناردو بدًّا من الوعد بذلك، لكنه كان يعلم أن الأمر مستحيل. أما فَقَدَ حماسته للعمل! يومذاك أحسَّ أنّه فقد معها القدرةَ على صنع أيّ شيء.

ولما خلا إلى نفسه في مسكنه عند المساء، أيقن بأنه لم يبقَ بوسعه قطُّ أن يحتمل استمرار الإقامة في فلورنسا. لقد خانه الحظ، هنا، ثلاث مرّات متوالية.. وإذن فلا بدَّ من الرحيل. ولكن إلى أين يرحل؟

إلى ميلانو من جديد

في تلك الليلة تذكّر ليوناردو أمر شارل دامبواز، نائبِ الملك الفرنسيِّ في ميلانو، يومَ عَرَضَ عليه في حرارة صادقة، أن يبقى في

بلاطه، موفور القدر والكرامة. فرأى أن يكتب إليه شارحاً أوضاعه العصبية، وراجياً إياه أن يتدخّل لدى الهيئة الحاكمة في فلورنسا كي تسمح له بالسَّفَر إليه. وقد شاءت المصادفة السعيدة يومئذٍ أنْ يكون دامبواز قد أرسل فعلاً، في تلك الفترة بالذات، كتاباً إلى الهيئة الحاكمة في فلورنسا. وقد طلب في ذلك الكتاب أن تسمح الهيئةُ الحاكمة للفنّان العبقريّ بالحضور إلى ميلانو، للإشراف على المهرجانات التي ستُقام بمناسبة زيارة الملك الفرنسي لويس الثاني عشر. ويبدو أن الملك نفسه كان قد أعرب لنائبه دامبواز عن رغبته الشديدة في التعرّف إلى الفنّان العظيم ليوناردو دي ڤنشي. ومن ثم، لم يكن بوسْع الهيئة الحاكمة أن ترفض الطلب، فهي لا تريد أن تثير غضب الملك الفرنسي القويّ على جمهوريتها الصغيرة.

هكذا استطاع ليوناردو أن يغادر فلورنسا في ذلك الحين، بعد أن كتب على نفسه وثيقةً يتعهّد فيها بالرجوع خلال ثلاثة أشهر على الأكثر، للشُّروع في تصوير اللوحة الحائطية من جديد. لكن الهيئة الحاكمة لم تدعْهُ يسافر إلّا بعد أن ترك في يديها مبلغاً كبيراً من المال كضمانٍ لعودته وتنفيذ العمل المطلوب.

أسعد الأيام وأشقاها

عاش ليوناردو دي ڤنشي في ميلانو أيّاماً سعيدة لا تُنسى. حتى إذا انتهت مُهلة الأشهر الثلاثة رفض أن يعود إلى فلورنسا. ولم يهمّه أن يخسر المال الذي كان قد تركه ضمانةً لدى الهيئة الحاكمة. بل إنه فعل أكثر من ذلك: لقد تنازل عن كلّ ما كان يملكه هناك من حوائج وأغراض. أما لوحة (الجوكوندا) وكُتبه وأوراقه، فكان قد حملها معه إلى ميلانو.

والظاهر أن الفرنسيّين قد عرفوا كيف يوفّرون له جميع أسباب الهناء، إذ أحاطوه بفائق الرعاية والاحترام، كما سخَوا عليه بالمال لِقاء الأعمال التي كان يُنجزها لهم. ولعلّ أكثر ما كان يُسعده معهم، أنهم كانوا يقدّرون عبقريّته المتعددة المواهب أعمق التقدير. ولقد أُعجب به لويس الثاني عشر لدى زيارته لميلانو، فطلب إليه مرافقته إلى فرنسا، ووعده بأن يجعله مستشاره الحربيّ والمهندسَ والرّسام والنديم الخاص له. لكن ليوناردو اعتذر عن تلبية هذا الطلب بحبّه الكبير لطبيعة بلاده الإيطالية وملاءَمةِ جوّها الدافىء لمزاجه الصحيّ. فقبِل الملك عُذره وأمر له بمعاشٍ دائم يناله كلّ شهر مدى الحياة.

في تلك الأثناء وجد ليوناردو نفسه وسط ظروفٍ وأوضاع جدّ ملائمة له. فقرّر البقاء في ميلانو حيث ارتبط مع حاكمها الفرنسي،

دامبواز، بصداقة حميمةٍ خالصة، وفّرتْ له الطمأنينة والعيش الهانىء الكريم، كما أتاحت له الانصراف بين حين وآخر إلى هواياته العلمية. هناك تيسّر له أن يُكِبَّ على دراسة المسائل المائيّة وتطبيق دراسته هذه في شقّ أقنيةٍ للريّ. كذلك عاد إلى دراسة التيارات والدوّامات الهوائية. بنحوٍ أعمق من ذي قبل. وكان عنصر الضوء في جملة الموضوعات التي عُني بدراستها في ذلك الحين، فقادَه ذلك، بطبيعة الحال، إلى دراسة العين البشرية وتركيب أجزائها وخصائصها. وهنا برزت له مشكلة خطيرة...

ينبشُ القبور!

اضطرّت الدراسةُ البصرية ليوناردو إلى تشريح الجثث. فكان يَنسلُّ إلى المقابر سرًّا في ظلمة الليل، فيفتح القبور ويقضي ليله مع الأموات حتى صياح الديك. وبين أصدقائه هؤلاء كان ليوناردو يظلّ منهمكاً في تشريح جثثٍ لم يَمضِ على دفنها غيرُ ساعات قليلة. ولا شك أنّ هذه المغامرات تشهد بما كان عليه من ولع شديد بالعلم، ومن جسارة بالغة في الوصول إليه. ونحن نعرف ما كان يحيط بمثل هذه المغامرات من مخاوف وأخطار جديّة. فقد كان تشريح الموتى محظوراً في تلك الأيام باعتباره جريمةً تُعرِّضُ صاحبها لأشدّ العقوبات. لكن ليوناردو قد أفلح في إقناع الحاكم الفرنسي، دامبواز، بفوائد تشريح الجثث وضرورة السماح به ـ ولو بالسرّ ـ من أجل تقدُّم العلم والطب وخدمة الأحياء. ثم إنه عقد اتفاقاتٍ سريّة مع بعض دور الاستشفاء، فتمكّن من القيام بتجاربه في ظروفٍ أفضل. ومع ذلك كان الأمر يجري بمنتهى الصعوبة في أوضاع مرهقة للغاية. إذ كان على ليوناردو أن يواصل عمليّات

التشريح ليلاً ونهاراً، على ضوءٍ شحيح، وفي حُجُراتٍ ضيقة مغلقة النوافذ، وملأى بالرّوائح الكريهة والهواء الفاسد. كان هذا من أجل أن يُنجز العملَ قبل أن تدخُل الجثّة التي يُشرِّحها طورَ التعفُّن والانحلال.

ومع هذا فقد ظَفِر الفنّان العالم من تجاربه العسيرة بملاحظات علميّة قيّمة كان يدوّنها في دفتر خاص. ثم إنه ما لبث أن تنبّه إلى أهميّة الرسم وفوائده الكبرى في مجال الشرح والتفسير للملاحظات. فكتب في دفتره، ذاك الحين، يقول: «من الأفضل بل هو أكثر دقّةً وفائدةً، أن يشرح الإنسان ما يريد وصْفَه عن طريق الرسم، لا بالكلمات».

وقد بلغ من الدِّقّة في رسومه ومن صحّتها العلمية مبلغاً فائق الحدّ. حتى أنّ كُتُبَ الطب الحديث في أيامنا لا تزال تعتمدها بكل ثقةٍ واطمئنان.

وانتقل ليوناردو بعد ذلك، إلى مجال آخر، هو مجال المقارنة بين جسم الإنسان وجسم الحيوان. فدوّن في دفتره كثيراً من الملاحظات عن مواضع التشابُه والتّناقض بينهما. وقد وجد مرّة، لدى تشريحه لجثة أسدٍ، أن حاسّة البصر والشم عنده أقوى بكثير منها عند الإنسان. فعلَّل ذلك بفارق الحجم بين أعضاء حاسة البصر وحاسة الشم في جمجمة الأسد وبينها في جمجمة الإنسان. وهناك الكثيرُ من الملاحظات والأفكار التي لم يستطع تدوينها حينذاك. فكتب يقول، على سبيل الاعتذار: «لا الكسلُ ولا الإهمال هما اللذان يمنعانني من تدوين جميع أفكاري.. وإنما هو ضِيق الوقت فحسب».

ليوناردو في المسلخ

كان من شأن هذه الأفكار والملاحظات، سواءٌ المدوَّنةُ منها وغير المدوَّنة، أن تقود ليوناردو إلى التفكير الجدّي العميق في أسرار الحياة، والبحث عن عِلَلِها الأساسية في جسم الإنسان وجسم الحيوان. فكان يذهب إلى المسلخ حيث تُنحر الأغنام، وهناك يراقب عمليّة النّحر بانتباهٍ شديد، ويلاحظ ما يَنْجُم عنها مباشرةً من فقدان الجسم لظاهرة الحياة والحركة. وكان يطرح على نفسه الأسئلة التالية:

«في أيّ عضو أو مجموعة من الأعضاء تتركّز شعلة الحياة في الجسم الحيّ؟

«ما هو المحرِّكُ الأساسيُّ لها؟

«لماذا تكون الإصابة في بعض الأعضاء مميتةً، وفي البعض الآخر غير مميتة، بل قابلة للشفاء؟»

لا شكّ أن الفنّان العالِمَ ما كان يستطيع في ذاك العصر المظلم أن يجد الأجوبةَ الصحيحةَ عن مثل هذه الأسئلة الصّعبة. إلّا أن استغراقه في التفكير بالحياة وأسرارها، قاده إلى تأمُّلاتٍ فلسفية عميقة توصَّل منها إلى بعض القوانين الأخلاقية الأساسيّة والضرورية للمجتمع البشري. كان الآنَ قد بلغ مرحلة النضوج الفكري.. وتيسّر له أن يدرك بعينين صافيتين، أي حدٍّ من الجَمال والرّوعة يبلغ إليه جسم الإنسان: من حيث مظهرُه الخارجيُّ العام ومن حيث التركيبُ الدّقيقُ المتناسقُ لأعضائه وأجهزته الدّاخلية. وفي ضوء هذا الإدراك الناضج كان ليوناردو دي ڤنشي يتساءل ببساطة متناهية: أليس من العار والغباء أن يَقْتَتِل الناس

فيما بينهم ويتذابحوا ويصنعوا الأسلحة التي تدمّر هذا الجمال الرائع البهاء؟ ولماذا يقتتلون ويتذابحون؟ مِن أجل أي شيء؟ هل هناك شيء أثمنُ من الحياة والجمال؟!! يقيناً أن الحرب جريمةٌ بلهاء لا يمكن تبريرها... إن السلام هو القانون الحقيقي الأساسي الذي يجب أن يسود حياة البشرَ أجمعين.

إعادة نظر

من هنا أخذ الفنّان الكبير يعيد النّظر فيما كان مولعاً باختراعه في السّابق من أسلحة التدمير والقتل. فأحسَّ بِعُقْدة الذَّنْب تتحرّك في ضميره. وهكذا اتخذ العالم الحكيم الناضج قراراً بالكفّ نهائيًا عن التفكير في اختراع الأسلحة. وأقبل على الحياة بكل ما غمر قلبَهُ يومئذ من حبٍّ لها وتقديس... لقد أخذ يفكّر في تحسين معيشة الناس الذين من حوله، فرسم التصاميمَ الهندسية البارعة لبناء مُدُنٍ جديدة، نظيفة، ذات مساكن صحيّة تحيط بها الحدائق وتغمرها الشمس. واهتمَّ بشؤون الصناعة التي تنتج للنّاس مختلف الحاجات الضرورية لحياتهم، فاخترع آلةً لحياكة النسيج، وثانيةً لصبغ الأقمشة بالألوان الجميلة، وأخرى لدباغة الجلود الحيوانية. وقد أسّس معملاً لصنع التُّحف الزجاجية، كما ابتكر آلةً جديدة لطباعة الكتب، أضاف عليها من وسائل التحسين ما لم يكن متوفّراً في الآلة القديمة التي اخترعها من قبله جون غوتنبرغ الألماني.

كذلك التفت ليوناردو إلى شؤون الزراعة، فجعل يفكّر في استخدام مياه الأنهر الذاهبة إلى البحر دون الاستفادة منها. فرسَمَ التصاميم

الهندسية لسدودٍ تُقام على الأنهر وخزاناتٍ وقنوات للريّ.

وكان خلال ذلك كلّه، وبالإضافة إليه، لا ينقطع عن تصوير اللوحات الجميلة، كما كان يزيّن الأضرحة بالنقوش والمنحوتات، ويهندسُ القصور، ويملأ الحياة من حوله، في البلاط الملكي الفرنسي بميلانو، بهجةً وسروراً، بما كان يبتكره من فنون التسلية واللهو ومختلف المشاهد الخاصة بالحفلات والمهرجانات.

هكذا كانت الأيام التي قضاها ليوناردو الحكيم خلال زيارته الثانية لميلانو، فترةً سعيدة لا تنسى. على أنها لم تدم أكثر من بضع سنوات. لأن الحرب عادت من جديد. إذ زحف الألمان والسّويسريّون على ميلانو بتحريضٍ من البابا يوليوس الثاني. وكان هذا قد بدأ ينزعج كثيراً من تزايُد نفوذ الملك الفرنسي في إيطاليا، فصمّم على طرده من البلاد بالقوّة. من أجل هذا اقتحمت جيوشُ حلفائه الألمان والسويسريين أسوارَ ميلانو. وقد دارت على أبوابها معارك عنيفة بقي النصرُ خلالها يتأرجح بين الفريقين، إلى أن حلَّت الهزيمة نهائياً بالفرنسيين، فقُتل قائدُهم الحاكم شارل دامبواز وخرجت بقايا جنودهم من إيطاليا كلّها عائدة إلى فرنسا.

كان لا بدَّ في هذه الحال، أن يخرج ليوناردو أيضاً من المدينة المحتلّة. فقد قُتل صديقه وراعيه، وانقلب الجوّ في ميلانو رأساً على عقب. كما أصبحت الحياة فيها أمراً لا يُطاق.. بسببٍ من شراسة المحتلّين الجدد، وتجدّد القتال بينهم وبين الطامعين في الاستيلاء على المدينة من آل سفورزا، حكّامها الأسبقين.

خرج ليوناردو يومئذ حاملاً معه ما لم يكن يستغني عنه: جوائجه وأغراضه الضرورية، وفي رأسها لوحة الجوكوندا الحبيبة وكُتبه المخطوطة ودفاتره وأوراقه. لقد رأى يومذاك أن روما هي المكان الأفضل لإقامته. وكان من حسن حظّه أنَّ البابا يوليوس الثاني مات في ذلك الحين، واعتلى سُدَّة البابويّة رجل من آل المدتشي، هو الذي حمل اسم البابا ليون العاشر. وكان لهذا شقيقٌ يحفظُ لليوناردو أعمق المودّة والتقدير والاحترام، اسمه جوليانو دال مدتشي. وعلى الرغم من أنّه كان شابًا لا يتجاوز الثلاثين من العمر ـ في حين كان ليوناردو قد بلغ الستّين ـ فقد أقبل على صاحبه الفنّان يرعاه ويحوطه بكل أسباب العناية والرعاية، حتى قامت بينهما صداقة متينةٌ للغاية.

كان أولَ ما فعله جوليانو من أجل صاحبه هو السعيُ لدى شقيقه البابا وحَمْلُهُ على إصدار أمرٍ بنقل صديقه ليوناردو من الفندق المتواضع الذي نزل فيه إلى جناح من قصر (البلفيدير). وهو قصر صيفيّ تابع لأملاك الكنيسة. وكان مبنيًا فوق مرتفعٍ اسمُه تلّ الفاتيكان، تحيط به الأشجار العاليةُ القديمة وحدائق الزّهور من كل نوع. وكانت هناك حديقة للحيوانات تضمُّ أجناساً كثيرة من الحيوان والطير.

وعلى ذلك، كانت الإقامة في مثل هذا المكان غاية ما يمكن أن يحلم به رجل عبقريٌّ متعدِّد المواهب والميول من طراز ليوناردو.

في الواقع، إن الفنّان العالِم لم يصدِّق لأوّل وهلة أنّه مقيمٌ حقًّا في ذلك المكان الذي هو أشبه بالجنّة. لقد حَسِبَ نفسه وسط عالم من عوالم الأحلام الفردوسيّة العجيبة. لكنّه لم يلبث أن تعوَّد إقامتَه في تلك



الجوكوندا، الكنز الذي يحمله ليوناردو أينما ذهب

البيئة الساحرة، وجعل يقضي أيامه ومعظم لياليه في تأمّل أنواع الشجر والزهر وأجناس الحيوان والطير، وكل منها ما هو غير مألوف لديه. هناك كان يستغرق في مراقبتها ودراسة تصرُّفاتها استغراقاً عميقاً ينسى معه أن يتناول طعامه أو يأوي إلى فراشه.

بالاختصار، كان حوله عالم عجيبٌ فتّانٌ ساحر، يستثير في عقله من الأفكار والملاحظات الدقيقة ما ليس يسعه الحصر. وكان هذا الأمر هو الذي حرَّك في نفسه شهوة زائدةً إلى التأليف، فانصبَّ على الكتابة بحرارة ومثابرة عجيبتين. كان يُدوِّن أفكاره وملاحظاته عن فصائل النبات والحيوان، ويُرفقها في الوقت نفسه برسوم تفصيلية تشرحها

بوضوح ودقّة، حتى تجمّع لديه من هذه المخطوطات المرسومة مقدارٌ وافر. ومن ثمَّ مضى يعيد النظر في كتاباته الماضية حول مختلف الموضوعات التي كان قد عالجها في السابق.. من فن الرسم والنحت وتحضير الألوان، إلى شتى فروع البيولوجيا والفيزياء والكيمياء والميكانيك، فمسائل الطيران. فشرع يعدّل فيها ويصحّح ويضيف إليها، وكأنّه يُهيِّئها للطبع. وهذا ما كان ينويه فعلاً. إذ وجد لديه من دفاتر الملاحظات وأكداس الورق المخطوط ما يؤلف كُتُباً عديدة متنوّعة. فمن الضروري ترتيبها وتصنيفها خشية التبعثر والضياع.

غير أنه حدث في تلك الأثناء ما أعاقه عن إنجاز المهمّة. فقد انتشر وباء في ضواحي روما والقرى المجاورة لها، واشتدَّ خطره يومذاك حتى بات يهدِّد روما نفسها. فقلق البابا أشدَّ القلق، وكان معروفاً بخوفه الشديد من الأمراض، والإفراط في الحرص على صحّته. فطلب إلى شقيقه جوليانو أن يهرع إلى صديقه العالِم يستشيره فيما يمكن اتخاذه من تدابير الوقاية. وزاد الأمرَ خطورة آنذاك أنَّ الوباء كان مجهول الهويّة لدى أطبّاء ذاك العهد. فما كان منهم من يعلم يومئذٍ أنه الوباء المعروف في أيامنا باسم (الملاريا) وأنه ينشأ في الأصل عن جراثيم يحملها بعوض المستنقعات.

ويبدو أنَّ ليوناردو قد لاحظ تكاثُرَ البعوض في الضواحي والأرياف على غير عادة، فرجّح لديه أن يكون البعوض هو العلّة.. وذلك على الرغم من جهله التام بأمر الجراثيم التي قُدِّر لها أن تُكتشف بعد ذلك الحين بزمن طويل. لقد رأى ليوناردو أن تجفيف المستنقعات هو الحل الوحيد لمشكلة الوباء. وسرعان ما اندفع إلى العمل، فأخذ يضع الخطّة

ويدرس الوسائل ويطبّقها في مكان بعد آخر إلى أن ظهرت بوادر النجاح بعد شهور طويلة، إذ أخذ البعوض يختفي بالتدريج وانخفض عدد الإصابات بين السكان انخفاضاً محسوساً.

فرح البابا كثيراً لهبوط موجة الوباء. ومع علمه أن ليوناردو العظيم هو الذي كان وراء المهمّة، فلم يبدُ عليه أنَّه قد غيَّر موقفه من الفنّان العالِم. وكان يتّسم بالإهمال وعدم المبالاة. لعلَّ ذلك كان بسبب اختلاف مزاجيهما: فالبابا يحب المزاح والنكتة والمرح، وليوناردو يميل إلى الرّصانة والصمت والتفكير العميق الذي يطبع وجهه بالعبوس. هذا كما كان رجال الحاشية في البلاط البابوي يضمرون له العداء، ويهمسون في أُذن البابا شتى الأقاويل عنه بقصد أن يمتنع عن تكليفه بأي عمل من أعمال الهندسة والتصوير. ولهذا بقيت تلك الأعمال محصورة بين فنّانين اثنين، أحدهما روفائيل المشهور والثاني ميكال أنجلو الذي كان قد غادر فلورنسا وجاء إلى روما كي يقيم فيها.

وعلى كل، كان ليوناردو في غنًى عن رجال الحاشية وعن البابا نفسه. فالمرتَّب الشهري كان يأتيه من ملك فرنسا بانتظام؛ وجوليانو، شقيق البابا، يسهر على راحته ويزوّده بكل ما يحتاج إليه. ولم يكن يبخل عليه بالمال الوفير يُغدقه عليه بين حين وآخر. وهكذا كان بوسع الفنّان العالم الذي أدركته الشيخوخة أن يطمئن إلى معاشه اليومي وينصرف إلى أعماله العلمية الخاصّة ويُنجزها بهدوء.

بيد أنَّ هذا الاطمئنان ما كان ليدوم طويلاً. فقد مات الملك الفرنسي لويس الثاني عشر فجأةً، فانقطع المرتّب الشهري عن ليوناردو. ثم أصاب جوليانو مرض خطير خلال سفرةٍ قام بها إلى فلورنسا، فبقي

فيها يعاني من مرضه الذي دام شهوراً طويلة، ولم يكن بوسعه خلال هذه المدّة أن يسعف صديقه بشيء.

وراحت الأزمات والمشكلات المزعجة تتوالى على رأس ليوناردو بعد ذلك. فقد تبيَّن أنّه كان يملك معملاً في روما، كان قد أسَّسه من أجل صنع المرايا والتّحف الزجاجيّة من ثريّات وغيرها. وكان يستخدم في ورشة الصَّهْر والصَّبّ عاملَين جاء بهما من ألمانيا. ومن سوء حظه أن الرجلين كانا نموذجين للشراسة والمكر والغدر. فما إن سمعا بمرض جوليانو واضطراره إلى البقاء طويلاً في فلورنسا، حتى أيقنا بأنه بات في وسعهما أن يستبدّا بالمعمل وبصاحبه كما يريدان. ثم إنهما لم يلبثا بعد ذلك أن طمعا بالاستيلاء على المعمل، فسرقا محتوياته وفرّا إلى ناحية مجهولة.

اغتمّ ليوناردو للحادث أشدَّ الاغتمام، فقد وجد نفسه محروماً من آخر موردٍ يستند إليه. وساءت صحتُه في الشتاء فلزم فراشه زمناً عجَزَ خلاله عن الخروج من مسكنه. ولمّا شُفي وجد نفسه أمام مصيبة جديدة لم يكن يتوقعها قط. ذلك أن واحداً من الرجُلين الألمانيين كان قد فكّر بأن يقطع الطريق سلفاً على الفنّان الشيخ إذا ما شاء ملاحقتهما أمام القضاء. فمضى إلى البلاط البابويّ وأخبر رجال الحاشية بأن ليوناردو دي فنشي يقوم بتشريح جثث الموتى.

وهكذا كان على ليوناردو أن يواجه عواصف السّخط والغضب وأصابع الاتّهام من رجال الكنيسة.. لأن تشريح الموتى كان يُعتبر جريمة فظيعة تعاقب الكنيسة عليها أشدّ العقاب. ويبدو أن ليوناردو لم يتهيَّب

الموقف يومئذ. فلقد أبى أن يكذب أو ينفي التهمة عن نفسه. بل انطلق، على الرغم من شيخوخته، يدافع بحرارة وجرأة عن مبدأ التشريح وضرورته لتقدُّم العلم والطلب. لكن دفاعه ضاع بين صيحات الغضب والتهويل وتهديد الأصابع المتوتّرة التي كانت تأبى إلّا أن تُدين الرجل. ومع ذلك نجا ليوناردو من المصير المحتَّم الذي كان ينتظره.. أنقذته الحرب هذه المرّة. إذ تحرَّكت جيوش الملك الفرنسي الجديد، فرانسوا الأول، تريد غزو ميلانو وبسط نفوذ المملكة على معظم المقاطعات الإيطالية. فلم يبقَ للبابا ولا الكرادلة أن يواصلوا الاهتمام بقضيّة ليوناردو. فأطلقوا سراحه فوراً، وعكفوا على تهيئة وسائل الدفاع ومجابهة الغزو الفرنسيّ الجديد. غير أن الملك فرانسوا الأول الذي كان من أشد رجال الحرب قدرة وبطشاً، لم يسمح بأن تقف في طريقه جيوش ولا قلاع. فما أسرعَ ما اجتاز الأرض الإيطالية بقوّاته الضاربة واندفع نحو ميلانو.. فاحتلّها خلال أيّام، ومضى يبسط نفوذه على ما تبقى من المقاطعات. وعندئذ لم يكن أمام البابا ليون العاشر غير التسليم بالأمر الواقع.

أمّا ليوناردو فقد حار يومئذٍ فيما عساه يصنع. هل يبقى في روما أم يرحل عنها؟ وإلى أين يرحل؟ ثم أتاه خبر وفاة جوليانو صديقه الحميم، فحزن حزناً شديداً وقرّر الرحيل. وخَطَرَ له أن يذهب إلى ميلانو ويقدّم نفسه إلى الملك فرنسوا الأول. وعلى الرّغم من ضآلة أمله بأن يلقى لدى هذا الملك الفرنسيّ مثلَ ما لقيه في السّابق لدى سلفه الراحل لويس الثاني عشر، فقد قرّر أن يغامر بالسّفر إلى ميلانو، مهما تكن النتيجة. ولكَم كانت دهشته حين استقبله الملك الجديد في بلاطه

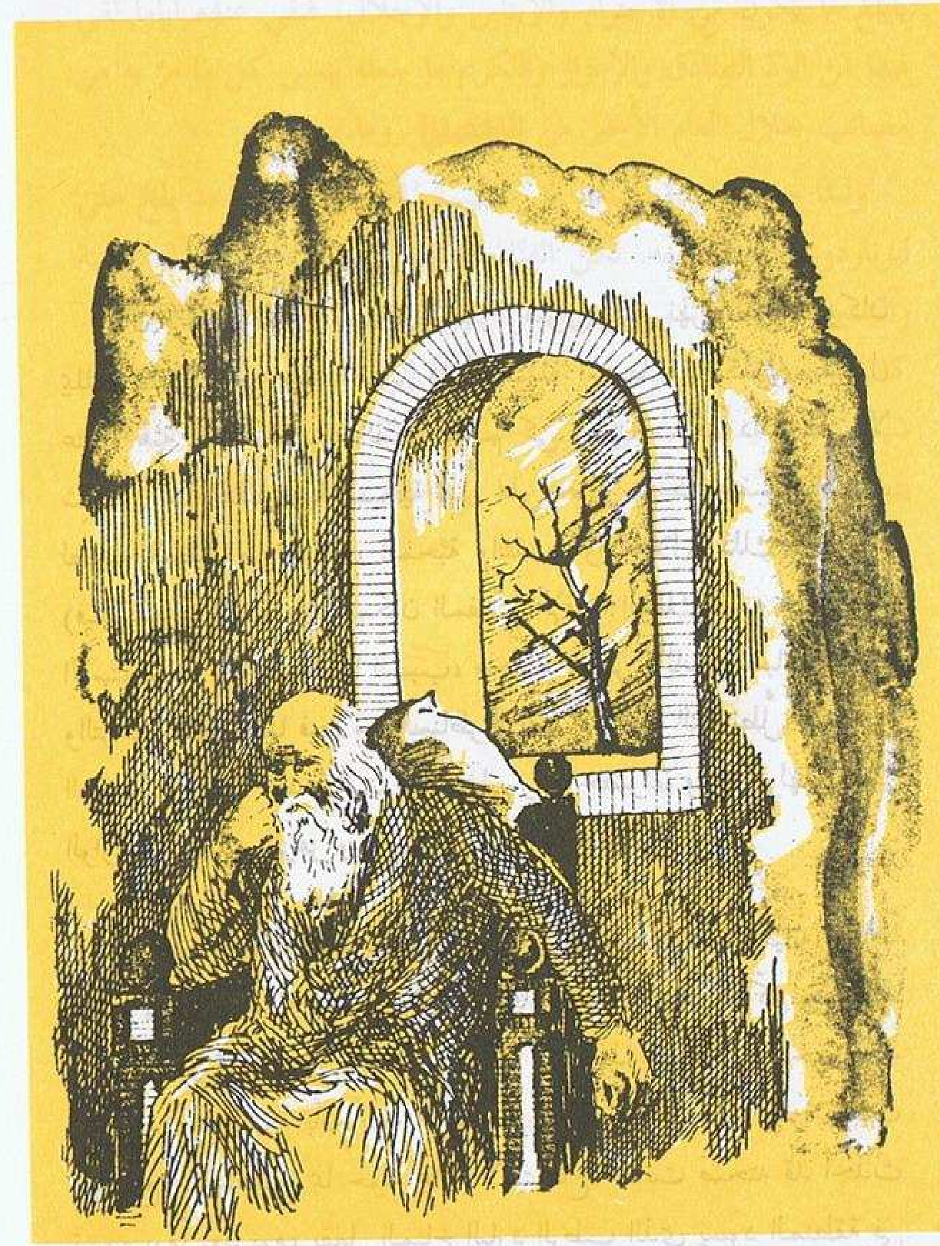
بأبلغ ما يكون من الاحترام والإيناس والإجلال. فبقي عنده أياماً لقي فيها من الودّ الصادق والإعزاز والتّكريم ما جعله ينسى كل ما مرَّ به من مصائب خلال العام الأخير من إقامته في روما.

ولمّا حانت عودة الملك إلى عاصمة مُلْكه في فرنسا أخذ يلحُّ على ليوناردو بالذّهاب معه. لكن الفنّان العالِم الشيخ، وقد ناهزَ الخامسة والستين من عمره، لم يكن في حاجة إلى مَن يلحُّ عليه بمثل هذا الطلب. كان يشعر أنه قد أصبح في أمسِّ الحاجة إلى ملجأ أخير ينهي فيه أيام شيخوخته بعيداً عن عواصف الحياة وقلقها واضطراباتها. ولهذا لم يتردّد. وسافر مع الملك إلى فرنسا في خريف عام ١٥١٧.

النهاية

كان فرانسوا الأول يقيم في قصر (أمبواز) على نهر (اللوار). وكان يملك بالقرب من هذا القصر دارةً جميلة اسمها (فيلاكلوز)، فتنازل عنها، هبةً كريمةً، لضيفه الفنّان العالم كي تكون مسكناً دائماً له. ولا شك أنَّ مثل هذه الهِبة السخيّة تدلُّ على مقدار ما كان يُضمره الملك لضيفه العظيم من صادق المحبّة والتقدير والإجلال. ذلك لأنَّ دارة (فيلاكلوز) كانت هي المكان المفضَّل لإقامة الملك نفسه في فترات الاستجمام. فكانت، لهذا السبب، مجهَّزةً بأفخر الأثاث وأسباب الراحة والترف، فضلاً عمّا فيها من المناظر الريفية الساحرة التي تطلُّ عليها من الجهات الأربع. فقد كانت قائمةً على ربوة خضراء، ومن حولها الشجر الوارف وحدائق الزهر وبرك الماء الرخامية ذات النوافير.

في هذه الجنة الصغيرة قضى ليوناردو العظيم آخر أيّام حياته محاطاً بما لم يكن يحلم به قط من وسائل الرَّفاه وطَراوة العيش. وكَم ودَّ يومئذ لو أن العمر يمتدُّ به إلى ما لا نهاية في مثل هذا المكان الساحر. لكنّه كان قد أخذ يشعر بأن أيامه الباقية من عُمره لم تعد من الكثرة بحيث يستطيع أن يستمتع بما حوله غاية الاستمتاع. كانت صحته قد أخذت تسوء يوماً بعد يوم، بفعل المناخ البارد الرطب الذي يسود المنطقة في الخريف والشتاء، وربّما أيضاً بفعل آثار المرض الذي سبق أن أصابه في



ليوناردو في أيامه الأخيرة

روما ولم يبرأ منه تماماً. وهذا ما كان ينغّص عليه عيشه الرخيّ الناعم. ولعلّ أشدّ ما كان يزعجه أن لا يكون قد بقي في وسعه أن يقدّم إلى راعيه الملك من الخدمات ما يوازي الكرَم الذي أسبغه عليه. على أنّه لم يجد بدًّا من الصَّبر، وأبى أن يستسلم إلى الشعور بعلامات الضعف في جسمه. لقد مضى يقاوم المرض بإرادةٍ عنيدة جبّارة، موحياً إلى نفسه كلّ يوم بأنه على خير ما يُرام من العافية والنشاط، حتى إن الملك نفسه لم يستطع أن يلحَظ أيَّ شيءٍ مما كان يعانيه ضيفه العزيز. فكثيراً ما كان يأتي إليه، يقضي معه في الدارة الجميلة أياماً بطولها، ويصحبه في نزهات طويلة بين الحدائق، أو يجلس إليه إذا كان الطّقس ممطراً، فيصغي خلال ساعات من النهار والليل إلى أحاديثه الشيّقة. وكان يتدفّق بها، كالينبوع السخيّ، طارحاً بين يدي صديقه الملك كنوزَ الخبرة والتجارب التي امتلأ بها عقله وروحه خلال ما يزيد على خمسين عاماً قضاها في ممارسة الفنون والعلوم والفلسفة. فكان الملك لا يزداد إلّا إعجاباً بعبقريّته الغنيّة المتنوّعة وتعلُّقاً بشخصه، حتى بات الجليس المفضّل لديه.

ولقد كان الفنّان العالم شديد الحياء من شدّة إكرام الملك له. فكان يُجهد فكره في ابتكار ضروب التسلية والترفيه بِقَصْد أن يُدخل على قلب راعيه الكريم أقصى ما يكون من البهجة وألوان السرور والمرح. فكان يفاجئه بحفلاتٍ تمثيلية يقيمها في البلاط الملكي، وبليالٍ ساهرة ممتعة يغْنيها بكل ما هو فريد وطريف من المشاهد والألعاب المختلفة. وكان يعرض عليه، أحياناً، تصاميم هندسيّة لمشروعات عمرانية يقترحها عليه، ومن جملتها بناءُ قلعة عجيبة الضخامة لا يمكن أن يجتاحها عدو

مهما بلغ من القدرة، ومشروعٌ قناة تربط ما بين بعض المدن الفرنسية الكبرى بحيث يسهل التنقّل فيما بينها بسرعة أكثر على ظهر سفن تمخر القناة. وكان مما اقترحه عليه يومئذ بناء بيوت نقّالةٍ تُستخدم في الرحلات والزحف العسكريّ أثناء الحرب.

على أن هذه المشروعات، كلّها، لم يكن لها أن تتحقّق لأن ليوناردو لم يكن قد بقي له يومئذٍ سوى شهورٍ قليلةٍ يقضيها في الحياة. ففي عام ١٥١٩ أقبل الشتاء قاسياً على غير عادة. فإذا بالفنّان العالِم يستيقظ ذات صباح، فيجد أنه عاجزٌ عن تحريك يمناه. لقد أصابها الشلل. وكان هذا يعني أن قلبه قد أصبح مهدّداً بالتوقُّف بين يومٍ وآخر. ومع ذلك، أبى العبقريّ الشجاع أن يستسلم إلى اليأس والموت قبل أن يموت فعلاً. كان يجيد استخدام يده اليسرى بالمهارة نفسها التي كان يستخدم بها اليمنى. وعلى ذلك شرع يرسم بيُسراه. وكانت لوحة (يوحنا المعمدان) التي أبدعها ذاك الحين. تحفةً لا تقلُّ جودةً وروعةً عن لوحة (الجوكوندا) نفسها.. تلك التي بقيت عزاءه الوحيد في أيّامه الأخيرة، وكان يجلس إليها ساعاتٍ طويلة من دون أن يرفَع بصره منها، وهو يستعرض في ملامح وجهها الجميل ذي البسمة الخفيّة السّاحرة، ذكريات أجمل أيام عُمره وأسعدها.

ويوم أحسَّ بدنوّ الأجلّ، واجه النهاية بهدوء عجيب وذهنٍ بالغ الصفاء. فجعل يكتب وصيّته مفصّلةً في بنود عدّة، كان أهمُّها: رجاء إلى الملك فرانسوا الأول بأن يُتمَّ بناء قصر (اللوفر) الذي كان قد بُدىءَ به منذ ثلاثة قرون، ثم بتحويله إلى متحف لروائع الفن، على أن تكون (الجوكوندا) أول لوحة تدخل إليه وتتصدَّر قاعاته المهيبة.

وفي يوم من أواخر ذلك الشتاء العنيف الذي هبَّ على فرنسا عام ١٥١٩، أغمض ليوناردو دي ڤنشي عينيه إلى الأبد. مضى حيث يمضي جميع النّاس. لكنّ (الجوكوندا) بقيت مع ما بقي من روائعه الفنيّة وأفكاره العلميّة المنثورة في عددٍ من كتبه. وحتى تصاميم المخترعات المدهشة التي اخترعها ولم يستطع تحقيقها، بقيت تنتظر بضعة قرون، إلى أن جاء من ينفض عنها الغبار، ويستوحيها ويضيف إليها، ثم يُخرجها إلى الوجود والاستخدام العام.

هكذا كان ليوناردو دي ڤنشي واحداً من العباقرة الملهَمين، السابقين بمسافات للعصور التي عاشوا فيها، وبهذا استحقّ أن يدخل في قافلة الأفذاذ «الناجحين» في الحياة.

أسئلة حول «ليوناردو دي فنشي»

١ ــ كيف كانت طفولة «ليوناردو»؟
٢ ــ كيف ظهرت أنانية الوالد؟
٣ ــ لماذا أرسله والده إلى «فلورنسا»؟
٤ ــ لماذا بقي ستّ سنوات أخرى عند أستاذه؟
٥ ــ كيف كان «ليوناردو» يسجّل المعلومات؟ ولماذا؟
٦ ــ كيف كانت الكنيسة تنظر إلى العلماء؟
٧ ــ ماذا حصل للعالم «غاليليو»؟
٨ ــ ما كانت نتيجة زيارة «ليوناردو» لحاكم «ميلانو»؟
٩ ــ ما الأمنية الكبرى التي يطمح إليها «ليوناردو»؟ هل تحقّقت؟
١٠ ــ علام أطلق اسم «مهرجان الفردوس»؟ ولماذا؟
١١ ــ لماذا احتفظ «ليوناردو» بـ «الموناليزا»؟
١٢ ــ ما الذي يدلّ على ولع «ليوناردو» بالعلم؟
١٣ ــ إلامَ انتهى به المطاف؟
١٤ ــ عد إلى القاموس واشرح ما يلي:
جندب ــ يجوب ــ انسلّ ــ فصم ــ المغمور ــ النفق ــ الغضون ــ المنصّة ــ رصّع ــ طفر ــ المطهّم ــ المأرب ــ الحفاوة ــ التملّق ــ جنح.
١٥ ــ ما الفرق بين «قِمّة» و «قُمّة»؟
١٦ ــ قال الكاتب: «أعجِب غاية الإعجاب». ماذا نعرب «غاية»؟
١٧ ــ علّل كتابة التاء في «نبات».

١٨ ــ ما نوع الكلمات التالية:
ملهَم، هانىء، كريم، مغامرة، منهمِك؟
١٩ ــ أعرب:
شرع موكب من الراقصات يطفرن إلى المنصّة.
٢٠ ــ موضوع مستوحى من القصّة:
قيل: «الحياة قصيرة، أمّا الفنّ فعمره طويل».
اشرح هذا القول وأيّده بالأمثلة.

المحتويات

الناجحون

مجموعة كتب تعرض حياة نخبة من أبطال العالم في الشرق والغرب، في الحرب والسلم، رجالاً ونساء، قديماً وحديثاً.

١ ـ زنوبيا
٢ ـ خالد بن الوليد
٣ ـ نابوليون بونابرت
٤ ـ بتهوفن
٥ ـ طارق بن زياد
٦ ـ هنيبعل
٧ ـ كولومبوس
٨ ـ عبد الرحمن الداخل
٩ ـ صلاح الدين الأيوبي
١٠ ـ مدام كوري
١١ ـ إديسون
١٢ ـ غاندي
١٣ ـ شكسبير
١٤ ـ المتنبي
١٥ ـ الإسكندر
١٦ ـ باستور
١٧ ـ ابن بطوطة
١٨ ـ هيلين كيلر
١٩ ـ شجرة الدر
٢٠ ـ ليوناردو دي فنشي

قالوا عن «الناجحون»..

«ابتعت المجموعة القيّمة التي أصدرتموها تحت عنوان «الناجحون» وحملتها إلى بيتي هدية إلى عائلتي الصغيرة، إلى بناتي، إلى زوجتي، وهدية لنفسي.

لقد قلتم إنكم تقدّمونها إلى الفتيان والفتيات، ولكني أؤكد لكم أنها بطباعتها الأنيقة وأسلوبها الممتع وتكثيف المعلومات بشكل ناجح أخّاذ تنفع الكل وتصل بينهم وبين معارف سبق أن قرأوها فنسوها، أو لم يسبق لهم أن ألمّوا بها...

ولقد التهمت هذه الكتب ووجدت فيها متعة وفائدة، وإني مؤمن بأن هذا الباب الذي فتحتموه إلى رياض المعرفة والثقافة والشجاعة والعمل والمثابرة سيكون طريقاً للنجاح، ودنيا لجيلنا وأجيال الشباب أيضاً. ولعل الشباب في أمسِّ الحاجة إلى مثل هذه المفاتيح في عصرنا، عصر القلق والضياع والانتماء والمتاهات الكبرى...

«الناجحون» سلسلة تضيف صفحة مشرقة إلى سجل **«دار العلم للملايين»**، وإني كأستاذ جامعي، وأبٍ، ومربٍ، أهنّئكم وأُهنّىء الذين أسهموا في هذه السلسلة».

الدكتور محمود محمد الحبيب

الأستاذ المساعد في الاقتصاد

البصرة ـ العراق

الناجحون

ليوناردو دي فنشي

الرّسّام الخالد



دار العلم للملايين



النَاجحونَ

- مجموعة كتب تعرض حياة نخبة من أبطال العالم في الشرق والغرب، في الحرب والسلم، رجالاً ونساءً، قديماً وحديثاً.
- تقدّمها دار العلم للملايين إلى الفتيان والفتيات الذين يريدون أن ينجحوا في الحياة.
- يقول المثل: إن النجاح يجرّ النجاح، فتعرّف إذن إلى الناجحين يسهل عليك تحقيق النجاح.
- أشرف على وضع هذه الكتب عدد من رجال التربية وعلم النفس في العالم العربي لتكون مدرسة حيّة لفتيان اليوم ورجال الغد.

5 281006 060204